الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز

سلسلة الجوائز
٧٤

رواية

فيليب روث

كل رجل

ترجمة: مصطفى محمود

• فيليب روث: أحد أهم الكُتاب الأمريكيين المحتفى بهم فى حياتهم.
• ولد عام ١٩٣٣ فى نيويورك بولاية نيوجيرسى.
• من أهم أعماله: "المؤامرة على أمريكا"، "الراعى الأمريكى"، "عملية شيلوك"، "الوصمة الإنسانية"، "الخديعة"، "الحيوان المحتضر"، "أستاذ الرغبة".
• بلغت عدد الجوائز الأدبية المحلية والعالمية الكبرى التى حصل عليها تسع عشرة جائزة من أهمها: الجائزة القومية للكتاب الأمريكيين مرتين، وجائزة دائرة النقاد للكتاب القومى، وجائزة فوكنر ثلاث مرات، وجائزة البوليتزر، وجائزة جمعية المؤرخين الأمريكيين، وجائزة المملكة المتحدة لأفضل كتاب فى العام مرتين، والميدالية القومية للفنون.
وبشكل عام حصل فيليب روث على أعظم الجوائز التى أتيحت لأى كاتب أمريكى، ويعتبر النقاد الأمريكيون فيليب روث واحداً من أهم أربعة روائيين فى تاريخ الأدب الأمريكى.
• أفضل تكريم حصل عليه فيليب روث مؤخرًا هو أن المكتبة القومية الأمريكية أصدرت مجلداً لأعماله الكاملة، وهو ما يؤكد مكانته رسميًا كأحد الكُتاب الكلاسيكيين الكبار المكرمين فى حياتهم.
• يتردد اسمه دائمًا فى السنوات الأخيرة قبيل الإعلان عن جائزة نوبل فى الآداب.

الجائزة: جائزة فوكنر للرواية.
من كبرى الجوائز الأدبية فى أمريكا وتعادل أهميتها أهمية جائزة الكتاب الوطنى، أطلق عليها اسم الروائى الأمريكى وليام فوكنر "١٨٩٧ــ ١٩٦٢" وهو واحد من أكثر الكتاب تأثيراً فى القرن العشرين كان شاعراً وكاتباً للقصة القصيرة ومن أشهر أعماله رواية "الصخب والعنف" جائزة نوبل عام ١٩٤٩ وتبرع بجزء كبير من قيمتها المالية لإنشاء صندوق لدعم وتشجيع كتاب الرواية الجديدة، وأنضم إلى تبرعه السخى كتاب آخرون منهم: "مارى لى تسويه" وتأسست الجائزة عام ١٩٨٠ وأصبحت بعد مرور أكثر من ربع قرن واحدة من أهم الجوائز الأدبية فى العالم ينتظرها الكتاب، لأنها بالفعل تمنح من كتاب رواد مثلهم، وتوزع فى مايو من كل عام فى مكتبة شكسبير الكبرى، والوحيد الذى حازها ثلاث مرات هو "فيليب روث" عن: "عملية شيلوك ١٩٩٤" "الوصمة الإنسانية ٢٠٠١" وأخيراً "كل رجل ٢٠٠٧".

كُلُّ رَجُلٍ

رئيس مجلس الإدارة	أ. د. محمد صابر عرب
رئيس التحرير	د. سهير المصادفة
مدير التحرير	السماح عبد الله
سكرتير التحرير	وردة عبد الحليم
التصميم الجرافيكى	د. مدحت متولى
الاخراج الفنى	صبرى عبد الواحد
	على أبو الخير

روث، فيليب، ١٩٣٣ ـ

كل رجل : رواية/ تأليف: فيليب روث؛ ترجمة مصطفى محمود .ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

١٩٢ ص ؛ ٢٢ سم .

تدمك ٢ ٤١٠ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الأمريكية.

أ ـ محمود، مصطفى (مترجم).

ب ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٦٠٠/ ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -410 - 2

ديوى ٨٢٣



فيليب روث

رواية

ترجمة : مصطفى محمود



- الكتاب: كل رجل

Everyman

- تأليف: فيليب روث

Philip Roth

- ترجمة: مصطفى محمود.
- يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.

- جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر والخارج.
- جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلفة.

Copyright© 2006, Philip roth,Everyman

all rights reseved

- الطبعة الأولى ٢٠١٠.
- طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

هنا حيث جلس الرجال يصغون إلى أنين بعضهم البعض؛

يرتجفون قليلاً من شلل رعاش، ويكتئبون حين يكسوهم الشعر الرمادى الأخير،

حين ينضب الشباب، وتمضى الأشباح الواهنة إلى الموت؛

حيث لا يفكرون سوى فى أنهم مترعون بالحزن...

ـ جون كيتس، "قصيدة من أجل كابوس"

تجمع حول القبر فى الجبانة العتيقة عدد قليل من زملائه السابقين العاملين فى الإعلانات فى نيويورك، راحوا يتذكرون طاقته وصلابته، وأخبروا ابنته "نانسى" عن السعادة التى عاشوها فى العمل معه. وجاء أيضاً أناس من قرية "ستارفيش بيتش"، مقر إقامته بعد التقاعد، وهى القرية الواقعة على شاطئ "جيرسى"، حيث كان يعيش هناك منذ عيد الشكر فى عام ٢٠٠١ ـ إن الكهل الذى صار إليه مؤخراً هو الذى منحه فقط متعة الاقتراب من الفن. وحضر ابناه، "راندى" و"لونى"، رجلان فى منتصف العمر من زواجه الأول العاصف، كانا قريبين كثيرًا جداً من أمهما، وبالتالى يعرفان عنه القليل مما يستحق الثناء والكثير مما يستوجب الكراهية، إلى جانب الذين حضروا من باب تأدية الواجب ولا شىء أكثر. كما حضر أخوه الأكبر، "هواى"، وزوجته، حيث طارا إلى هنا من كاليفورنيا الليلة الماضية، وحضرت أيضاً إحدى زوجاته الثلاث السابقات، الوسطى، أم

"نانسى"، "فاييى"، امرأة طويلة ونحيفة جداً ذات شعر أبيض، يتدلى ذراعها الأيمن على جانبها فاقد الحركة. وحينما سألتها "نانسى" إذا كانت تريد أن تقول شيئاً، هزت "فاييى" رأسها بخجل، لكنها اتجهت إلى الأمام حينئذ لتتكلم بصوت رقيق، حيث تهدج حديثها خافتاً: "فقط إنه من الصعب جداً التصديق. فأنا مازلت أتذكره وهو يسبح فى الخليج. هذا هو كل شيء. أنا مازلت أراه يسبح فى الخليج". وبعد ذلك هناك "نانسى" التى تولت ترتيبات جنازة والدها وأجرت المكالمات التليفونية مع هؤلاء الذين حضروا حتى لا يقتصر المشيعون على مجرد أمها وهى نفسها وأخيه وزوجة أخيه فقط. من بين الحاضرين شخص واحد لم تُوجه له دعوة، امرأة بدينة ذات وجه مستدير مشرق وشعر مصبوغ باللون الأحمر، ظهرت ببساطة عند المقبرة وقدمت نفسها على أنها "ماورين" الممرضة الخاصة التى كانت مكلفة برعايته لسنوات بعد جراحة القلب التى أجراها. تذكرها "هواى" ومضى إليها يقبل وجنتها.

وخاطبت "نانسى" كل فرد، "أستطيع أن أبدأ بقول شيء ما لكم عن هذه المقبرة، لأننى اكتشفت أن جد أبى، جدى الأكبر، لم يدفن فى الفدادين القليلة التى كانت عليها المقبرة الأصلية لمجرد أن يُدفن إلى جانب جدة أمى، بل إنه أحد مؤسسيها فى سنة ١٨٨٨. فالوكالة التى مولت المقبرة وأقامتها فى البداية كانت تتكون من جمعيات الدفن للمؤسسات الخيرية

اليهودية المنتشرة عبر مقاطعتى "يونيون" و"إكسيكس". فكان جدى الأكبر يمتلك منزل إيواء ويديره فى "إليزابيث"، يوفر الزاد للمهاجرين وخصوصاً القادمين الجدد، ويعتنى بأحوالهم كأفضل ما يكون، ولم يكن مجرد مالك الأرض. وهذا هو السبب فى أنه من بين الأعضاء الأصليين الذين اشتروا الحقل الممتد الذى كان هنا، وعملوا على تمهيده وإعداده، وهذا هو السبب فى أنه عمل كأول مسئول عن المقبرة. كان صغيراً نسبياً حينئذ، لكنه فى كامل حيويته، وها هو اسمه بمفرده ممهوراً على الوثيقة التى تحدد أن هذه المقبرة من أجل "دفن الأعضاءِ المتوفين وفقاً للشريعة اليهودية وشعائرها". وكما هو كل شىء واضح تماماً، فإن برامج الصيانة الفردية والأسوار والبوابات ليست على المستوى الذى ينبغى أن يكون. فالأشياء قد فسدت وسقطت، والبوابات صدأت والأقفال ضاعت، كان هناك تخريب. وأصبح المكان الآن فى نهاية طرف المطار، فما تسمعونه على بعد أميال قليلة هو الضجيج المتواصل للممر الرئيسى لنيوجيرسى. لقد فكرت بالفعل فى البداية بطبيعة الحال فى الأماكن الجميلة التى يمكن دفن والدى فيها، الأماكن التى اعتاد هو وأمى أن يسبحا فيها معاً حينما كانا شابين، والأماكن التى أحب أن يسبح على شواطئها. ورغم أن مشهد التدهور الحادث هنا يقطع نياط قلبى بالفعل. كما ربما قد تشعرون، ويجعلكم حتى تتعجبون لماذا نتجمع طوال الوقت على أراضٍ تنوء بالجراح على هذا

النحو المؤلم. لقد أردت له أن يرقد قريباً إلى جوار هؤلاء الذين أحبوه، وبالقرب من جدوده الذين انحدر عنهم. لقد أحب أبى والديه، وينبغى أن يبقى بالقرب منهما. لا أريده أن يبقى فى مكان آخر بمفرده". وصمتت لبرهة حتى تستجمع نفسها. امرأة رقيقة المحيا فى منتصف الثلاثينيات من عمرها، بادية الجمال مثلما كانت أمها، ألقت بنظرة واحدة على الكل، نظرة ليست قاسية أو حتى جسورة، بل نظرة مرتبكة لفتاة فى العاشرة من عمرها مغلوبة على أمرها. تحولت إلى التابوت، وأمسكت بحفنة من التراب وقبل أن ترمى بها على غطاء التابوت ، قالت بصوت هامس مازال يحمل نغمة الارتباك لفتاة صغيرة. "حسناً، هذه هى الكيفية التى صار إليها الأمر. لا يوجد شىء ما أكثر من هذا بمقدورنا أن نفعله يا أبى". ثم تذكرت هدوءه البالغ ورزانته منذ عقود مضت وبدأت تبكى. قالت له: "لا يمكن إعادة صنع الواقع، فقط لتقبل ما يأتى إليك. وتمسك بما أنت فيه وخذه كما يأتى لك".

وجاء الدور التالى لإلقاء حفنة التراب فوق غطاء التابوت على "هواى" الذى حظى بتقديره حينما كانوا أطفالاً، وفى المقابل فهو قد عامله دائماً برقة وعاطفة وأناة، علمه ركوب الدراجة الهوائية والسباحة ولعب كل أنواع الرياضات التى برع فيها "هواى" نفسه. ومازال يبدو كما لو كان يستطيع أن يركض عبر ملعب كرة قدم من خلال خط المنتصف، مع أنه فى السابعة

والسبعين من عمره. لم يدخل أبداً إلى مستشفى من أجل أى شىء، وعلى الرغم من أنهما تربيا معًا على النشأة نفسها إلا أنه ظل متمتعاً بالصحة طوال حياته.

كان صوته أجشَ يتدفق بالعاطفة حينما همس إلى زوجته: "أخى الحبيب. لا معنى لأى شىء". ثم توجه بخطابه إلى كل فرد: "دعونا نرى ما إذا كنت أستطيع أن أفعل هذا. دعونا نتوجه إلى هذا الرجل. إلى أخى...". وتوقف ليستجمع أفكاره حتى يستطيع أن يتكلم كلاماً مفهوماً. إن طريقته فى الحديث والنبرة الممتعة فى صوته تشبه كثيرًا صوت أخيه إلى درجة جعلت "فايبى" تبدأ فى البكاء، وسرعان ما أحاطتها "نانسى" بذراعها. قال وهو ينظر ناحية القبر: "لقد كان يعانى من مشكلات صحية. هناك أيضاً الوحدة - التى ليست هى أقل مشكلة. كنا نتحدث فى التليفون على قدر المستطاع، على الرغم من أنه قرب نهاية حياته قطع نفسه عنى لأسباب لم تكن واضحة أبداً. ومنذ وقت المدرسة الثانوية، تولد لديه حافز لا يُقاوم لأن يرسم بعد أن اعتزل العمل فى الإعلانات التى حقق فيها قدراً معتبراً من النجاح، أولاً كمنفذ إعلانات، ثم حينما ترقى ليصبح مدير التصميم - وبعد أن قضى زمناً فى الإعلانات بدأ يمارس بالفعل الرسم كل يوم من كل سنة أُتيحت له. نستطيع أن نقول عنه بدون شك ما قاله المحبون عن كل شخص يُدفن هنا: كان يجب أن يعيش حياة أطول.

كان ينبغى بالفعل". وهنا، بعد صمت لحظى، أفسحت النظرة المستسلمة للحزن على وجهه مكاناً لابتسامة مؤلمة. "حينما بدأت فى المدرسة الثانوية وانشغلت بالتدريبات مع الفريق بعد الظهر، تولى هو المهام التى اعتدت أن أقوم بها بتكليف من أبى بعد المدرسة. لقد أحب وهو فقط فى التاسعة من عمره أن يكون هو الذى يحمل الماسات فى مظروف يضعه فى جيب سترته إلى الحافلة المتجهة إلى "نيوآرك"، من أجل الفحص والتقييم والقياس والصقل وكل الاختبارات التى يجريها أبى الذى يعمل فى تصليح الساعات فى غرفة صغيرة خاصة به منزوية على طريق "فريلينجهازن". إن هذه الرحلات منحت الفتى سعادة لا حدود لها. فأنا أظن أن مراقبة هؤلاء الحرفيين المهرة يمارسون هناك تلك الأعمال الفريدة للأشياء الصغيرة الدقيقة، جعلته يتمرس على استخدام يديه فى صناعة الفن. وأظن أن فحص أوجه الماسات بعدسة أبى المكبرة للمجوهرات هو الجانب الآخر الذى عزز من رغبته فى صنع الفن". وسيطرت ضحكة مفاجئة على "هواى" فى انفعال صغير للتخفيف من مهمته، ليقول: "لقد كنت أخاً تقليدياً. فقد عززت الماسات الرغبة عندى فى صنع النقود". ثم استأنف من حيث توقف، ناظراً من خلال النافذة المشمسة الرحبة لسنوات الصبا. "لقد حصل أبى على إعلان صغير فى جريدة "إليزابيث جورنال" مرة واحدة فى الشهر. وفى أثناء الإجازة الفصلية، ما بين "عيد

الشكر" و"الكريسماس"، كان يأخذ الإعلان أسبوعياً. (استبدل ساعتك القديمة بأخرى جديدة). وأُلقيت كل الساعات القديمة التى جمعها. ومعظمها غير قابل للإصلاح. فى درج فى آخر المحل. كان بمقدور أخى الصغير أن يجلس هناك لساعات يغازل العقارب وينصت إلى تكتكة الساعات، إذا كانت مازالت تتكتك، ويتأمل ماذا يشبه كل سطح وماذا تشبه كل حالة. هذا هو ما صنعه "الولد" المثابر كالقرادة. فمائة أو مائتان من الساعات المستبدلة ربما الدرج بأكمله لا يستحق أكثر من عشرة دولارات، لكن بالنسبة لعين الفنان الفاحصة كان درج الساعات القابع فى آخر الحجرة كنزاً ثميناً. اعتاد أن يأخذها ويرتديها. كانت لديه دائماً ساعة خارج الدرج. واحدة من الساعات الصالحة. والساعات التى حاول أن يجعلها تعمل من تلك التى أعجبه شكلها، ويحاول تحريكها بأنامله ولكن بدون فائدة. وتصبح عموماً حالتها أسوأ مما كانت عليه. مازالت تلك هى البداية فى استعمال يديه فى أداء المهام الدقيقة. كانت عند أبى دائمًا فتاتان متخرجتان بالفعل من المدرسة الثانوية أقل من العشرين من عمرهما أو فى أوائل العشرينات، كانتا تساعدانه من خلف الطاولة فى المحل. فتيات "إليزابيثيات" جميلات لطيفات مهذبات حسناوات المظهر، دائماً مسيحيات، وفى الأساس كاثوليكيات أيرلنديات من اللواتى كان آباؤهن وأعمامهن وأشقاؤهن يعملون لدى مصنع ماكينات خياطة

"سنجر" أو لدى شركة البسكويت أو داخل الميناء. فهو تصور أن الفتيات المسيحيات الجميلات سوف يجعلن الزبائن يشعرون أكثر بالألفة. فإذا طُلِب منهن، فإن الفتيات سيجربن المجوهرات للزبائن كموديل لهم، وإذا كن محظوظات فسوف يجهزنها للشراء. وكما أخبرنا والدى، أنه حينما ترتدى امرأة شابة جميلة قطعة مجوهرات، تظن النساء الأخريات أنه حينما يتحلين بالحلية نفسها سوف يشبهنها أيضاً. إن الشباب العاملين فى أحواض الميناء الذين جاءوا ليبحثوا عن خواتم الخطوبة وخواتم الزفاف لصديقاتهم ستواتيهم أحياناً الجسارة على أن يمسكوا بيد الفتاة البائعة من أجل أن يفحصوا عن قرب الحجر الكريم. وأحب أخى أيضاً أن يكون فى وسط الفتيات، وقد كان هذا منذ زمن طويل قبل أن يستطيع أن يفهم ما الذى كان يمتعه كثيراً. فهو يساعد الفتيات فى تفريغ نوافذ العرض والفاترينات فى نهاية اليوم. يفعل أى شىء كان لمساعدتهن. فهن ينقلن المحتويات المعروضة فيما عدا المواد الرخيصة، وتماماً قبل موعد الإغلاق يفتح هذا الولد الصغير الخزانة الكبيرة فى الحجرة الخلفية ويضع المجموعة التى استأمنه والدى عليها. لقد قمت بكل هذه الوظائف من قبله، بما فيها الالتصاق أقرب ما يمكن من الفتيات، وخصوصاً من الأختين الشقراوين "هاريت" و"ماى". وعلى مر السنوات كانت هناك "هاريت" و"ماى" و"باتى"، كانت هناك "كاثلين" و"كورين"، وكل واحدة منهن كان لها تألق مع هذا

الفتى. تجلس "كورين"، ذات الجمال الخارق، على الطاولة فى الحجرة الخلفية فى أوائل نوفمبر، هى وأخى الفتى الصغير ويوجهان الكاتالوجات التى طبعها المحل لإرسالها إلى الزبائن للترويج لموسم الشراء فى الإجازة، حينما كان أبى يفتح ست ليال فى الأسبوع، وكان كل فرد يعمل مكرهاً. فإذا أعطيت أخى علبة من المظاريف، يستطيع أن يعدها أسرع من أى شخص، لأنه بارع جداً فى استخدام أصابعه فهو كان يعد المظاريف بالخمسات. وحينما أنظر إليه، أكون متأكداً تماماً مما سوف يفعله. يستعرض المظاريف بفخر من أجل "كورين". كم أحب هذا الولد أن يفعل كل شىء يتماشى مع كونه ابن جواهرجى يُعتمد عليه! كان هذا وسام الشرف المفضل لدى أبى. "يُعتمد عليه". وكان أبى يبيع على مر السنوات خواتم الزفاف للأيرلنديين الإليزابيثيين والألمان والسلوفاكيين والإيطاليين والبولنديين، معظمهم من شباب العمال للطبقة العاملة. وفى منتصف الوقت، بعد أن يقيم أوكازيون البيع، نتلقى الدعوات، للعائلة كلها إلى حفلات الزفاف. فالناس قد أحبوه. كان خفيف الظل، وحرص على تخفيض أسعاره وتمديد ائتمانه إلى كل شخص، بحيث نذهب. أولاً إلى الكنيسة، ثم إلى الاحتفالات الصاخبة. كان هناك الكساد، وكانت هناك الحرب، لكن هناك أيضاً حفلات الزفاف، ولدينا الفتيات البائعات، ورحلات إلى "نيوآرك" فى الحافلات، نحمل ماسات بمئات

الدولارات مخبأة فى مظاريف فى جيوب معاطفنا الصوفية. وتجد على كل مظروف من الخارج التعليمات الخاصة بالتقييم والحجم كتبها والدنا. وكانت هناك خزانة ارتفاعها خمسة أقدام من نوع "موسيلى" ذات الأدراج لصوانى المجوهرات نضعها بحرص كل ليلة ونخرجها كل صباح... لقد شكل كل هذا جوهر حياة أخى كفتى صغير طيب". واستقرت عينا "هواى" مرة أخرى على التابوت. فسأل: "والآن ماذا؟ أظن أن هذا كله أفضل ما كان. وإذا استرسلت أكثر وأكثر يتوارد المزيد والمزيد من التذكر، فمازالت الذكريات تترى... لكن لماذا لا نتذكر؟ ما هذا المخزون الآخر من الدموع بين الأسرة والأصدقاء؟ حينما مات أبى سألنى أخى إن كنت أُمانع فى أن يأخذ ساعة أبى. كانت ساعة "هاميلتون" مصنوعة فى "لانكستر"، (بى. أيه)، ووفقاً لتقدير كبيرى الخبراء فهى أفضل ساعة أنتجها هذا البلد فى تاريخه. وحينما يبيع واحدة، لم يكن ليتخلف أبداً عن التأكيد للزبون على أنه العميل الذى لم يخطئ فى الاختيار. انظر، إننى أرتدى واحدة منها بنفسى. ساعة على درجة عالية من الاحترام، ساعة (هاميلتون). وعلى ما أذكر ربما يقول الساعة الأمريكية الأولى على الإطلاق. (سبعون ـ تسعة وخمسون)، على ما أتذكر. ينبغى لكل شىء للبيع فى هذه الأيام أن ينتهى بخمسين. (هاميلتون) كانت لها سمعة عظيمة. كانت ساعة أنيقة من الدرجة الأولى. أحب أبى ساعته، وحينما قال أخى إنه يحب

أن يمتلكها، لم يسعدنى أكثر من هذا. فهو يمكن أن يكون قد أخذ العدسة المكبرة للجواهر وحقيبة أبى لحمل الألماس. كانت تلك هى الحقيبة الجلد القديمة البالية التى كان يحملها دائماً معه فى جيب معطفه أينما ذهب للأعمال خارج محله: مع الملاقيط الصغيرة بها والمفكات الدقيقة والخاتم الصغير للأحجام الذى يقيس حجم الحجر المستدير والأوراق البيضاء المطوية للإمساك بالماسات السائبة. إنها أشياء جميلة صغيرة محببة تعامل معها، وهى التى أمسكها بيديه وقربها من قلبه، لكننا قررنا أن ندفن العدسة المكبرة والحقيبة بكل محتوياتها فى مقبرته. لقد كان يحتفظ دائماً بالعدسة المكبرة فى جيب ويحتفظ بسجائره فى الجيب الآخر، ولذلك فنحن ألصقنا العدسة المكبرة فى كفنه. أتذكر قول أخى: (فى كل الأحوال ينبغى أن نضعها على عينيه). هذا ما يمكن أن يفعله الحزن بك. هكذا أُسقط فى يدنا. فلم نعرف أى شىء آخر يمكن أن نفعله. لم يبد لنا أى شىء يمكن فعله، صحيحاً أو غير صحيح، عدا هذا. بسبب أنها مجرد أشياء تخصه ـ كانت جزءاً منه... ولكى ننتهى من مسألة "هاميلتون"، "هاميلتون" القديمة التى يمتلكها أبى بالتاج التى تحولت إليك لتملأها كل صباح، وتجذب مسمار الجذع للخارج لتحريك العقارب... وفيما عدا وقت السباحة، فقد كان أخى يضعها فى معصمه نهاراً وليلاً. وخلعها فقط منذ ثمانى وأربعين ساعة مضت. وسلمها إلى الممرضة

لتحتفظ بها فى الأمانات أثناء إجراء الجراحة التى قتلته. وفى السيارة فى الطريق إلى المقبرة هذا الصباح أرتنى بنت أخى "نانسى" أنها قد أضافت علامة جديدة إلى المجموعة، والآن إنها هى من تضع (هاميلتون) لتعرف منها الوقت".

ثم جاء الابنان، رجلان فى أواخر الأربعينات يبدوان بشعرهما الأسود اللامع وعينيهما السوداوين المعبرتين والامتلاء الحسى لفمهما الواسعين المتطابقين تماماً مثل أبيهما (ومثل عمهما) عندما كان فى عمرهما. رجلان وسيمان آخذان فى الامتلاء، ويبدوان شديدى الارتباط ببعضهما البعض، كما كانا متعارضين متنافرين مع أبيهما المتوفى. تقدم الأصغر "لونى"، إلى المقبرة أولاً. لكن بمجرد أن أخذ حفنة من التراب البارد فى يده، بدأ جسده بالكامل يرتجف ويرتعش، وبدا كما لو كان يغالب رغبة عارمة فى التقيؤ. لقد غلبته المشاعر تجاه أبيه، وهى لم تكن عدائية بقدر ما أن عداءه قد حرمه الوسيلة لتفريغ هذه المشاعر. وحينما فتح فمه لم يتدفق منه شىء سوى سلسلة من اللهاث المتقطع، جعل الأمر يبدو كما لو أنه أياً كان ما فى جعبته فإنه لن ينتهى أبداً منه. كان فى حالة يائسة لدرجة أن "راندى" الأكبر، الابن الأكثر حسماً، الابن العنيف، جاء فى الحال لإنقاذ الموقف. أخذ حفنة التراب الباردة من يد الأصغر ورمى بها على التابوت من أجلهما هما الاثنين. وسرعان ما قوبل بالارتياح حينما مضى يتكلم. قال

"راندى": "ارقد فى هدوء يا أبى"، لكن صوته افتقر بشدة لأية نغمة من الرقة أو الحزن أو الحب أو الفقد.

كان آخر من اقترب من التابوت هو الممرضة الخاصة المسئولة عن تمريضه، "ماورين" القوية من نظرتها، التى لم تكن غريبة سواء عن الحياة أو الموت. وحينما تركت التراب وهى تبتسم ينساب عبر كفها المعقوف من جانب يدها إلى التابوت، بدت كأنها إشارة لبداية فعل شهوانى. فمن الواضح أنه كان هو الرجل الذى منحته ذات مرة الكثير من التفكير.

كانت هذه النهاية. لم تُطرح أية نقطة خاصة. هل قالوا كلهم ما كان ينبغى عليهم أن يقولوه؟ لا، إنهم لم يفعلوا، وبالطبع هم قد فعلوا. وبطول الولاية وعرضها فى هذا اليوم، كانت هناك خمسمائة جنازة مثلها، روتينية وعادية، وفيما عدا الثوانى الثلاثين التى خرجت عن السيطرة التى أحدثها الابنان - وبعث "هواى" بمثل هذا التحديد المؤلم للعالم كما وُجِد ببراءة من قبل اختراع الموت، الحياة الأبدية فى جنة عدن التى خلقها أبوهم، جنة باتساع خمسة عشر قدماً وعمق أربعين قدماً فقط، متخفية على هيئة محل الجواهر العتيق - لا شىء يزيد فى إثارته أو يقل عن الجنازات الأخرى. لكن كان هناك ما هو مشترك على وجه العموم وأكثر إيلاماً، وهو ما يجرى تسجيله مرة أخرى عن حقيقة الموت التى تهزم كل شىء.

وفى غضون دقائق انصرف كل شخص - انصرفوا ضجرين دامعين مبتعدين عن النشاط الأقل تفضيلاً من جنسنا - وتركوه خلفهم. وبالطبع فإنه مثلما يحدث حينما يموت أى فرد، على الرغم من أن الكثيرين كانوا مصدومين بالأسى، يظل الآخرون ثابتين دون أن يتزعزعوا، أو يجدوا أنفسهم يشعرون بالراحة، أو يشعروا بالسعادة الحقيقية لأسباب طيبة أو شريرة.

على الرغم من أنه اعتاد منذ نشأته أن يهتم بشئونه، ويتحصن بنفسه بعد طلاقه الأخير منذ عشر سنوات، إلا أنه قبل الجراحة فى الليلة الأخيرة فى فراشه شغل نفسه بالتذكر على وجه التحديد قدر ما استطاع كل امرأة ممن كن ينتظرنه فى كل مرة عندما يفيق من المخدر فى غرفة الإنعاش، تذكر حتى عشيقاته البائسات، الزوجة الأخيرة التى لم يكن تعافيه من جراحة تغيير الشرايين الخمسة معها تجربة رائعة. فالتجربة الرائعة كانت هى الممرضة الخاصة التى وإن لم تكن على قدر عالٍ من الناحية المهنية، رجعت معه إلى البيت من المستشفى، وكانت ترعاه بإخلاص وروح عالية حتى تقدم ببطء نحو الشفاء المستقر وأقام معها بدون معرفة زوجته علاقة قوية بمجرد أن استعاد قدرته الجنسية. "ماورين". "ماورين مرازيك". لقد كان ينادى باستمرار محاولاً أن يجد "ماورين". لقد أراد أن تأتى وتكون ممرضته، فلابد أنه يحتاج إلى ممرضة حينما يرجع إلى البيت من المستشفى هذه المرة. لكن مرت ست عشرة سنة،

ووكالة التمريض فى المستشفى فقدت أثرها. لابد وأنها تبلغ الثامنة والأربعين الآن، فالمحتمل أكثر أنها متزوجة وأم، جميلة، امرأة شابة مفعمة بالحيوية قوية نضجت إلى منتصف العمر، بينما هو قد خسر الآن معركته من أجل أن يحمى جسده، فالزمن قد حول جسده الخاص إلى مستودع لأجهزة معقدة غريبة من صنع الإنسان مصممة للوقاية من الانهيار. ولم يتطلب منه تهدئة خواطره عن انهياره الشخصى المزيد من الاجتهاد والبراعة.

وتذكر فى حياته فيما بعد الرحلة إلى المستشفى مع أمه من أجل عملية فتاق فى خريف١٩٤٢ لم يستغرق الطريق بالحافلة أكثر من عشر دقائق. وعادة حينما يسافر إلى مكان ما مع أمه، يأخذون سيارة العائلة، حيث يقودها أبوه. لكن الآن لم يكن يوجد سواهما بمفردهما معاً فى الحافلة، متوجهين إلى المستشفى التى وُلِد فيها، وكانت هى من يهدئ من خوفه وسمحت له أن يكون شجاعاً. لقد استأصل لوزتيه حينما كان طفلاً صغيراً فى هذه المستشفى، لكنه من ناحية أخرى لم يعد أبداً إليها. الآن عليه أن يمكث أربعة أيام وأربع ليالٍ. كان ولداً عاقلاً فى التاسعة ليست لديه مشكلات واضحة، لكن فى الحافلة شعر بأنه أصغر كثيراً ووجد أنه يحتاج إلى الالتصاق بأمه بطرق أعتقد أنه قد أصبح كبيراً عليها.

كان أخوه، الطالب فى المدرسة الثانوية، فى الفصل، وقاد أبوه السيارة إلى العمل قبل أن يغادر هو

وأمه مباشرة إلى المستشفى. واستقرت حقيبة صغيرة أثناء الليل على حجر أمه. وبداخلها كانت توجد فرشاة أسنان وبيجامة ومنشفة حمام وشبشب، والكتب التى أحضرها معه ليقرأها. مازال قادراً على تذكر نوعية هذه الكتب. كانت المستشفى بالقرب من مكتبة الفرع المحلى، وهكذا استطاعت أمه أن تزوده بالمواد اللازمة لقراءته إذا انتهى من قراءة الكتب التى أحضرها لفترة بقائه فى المستشفى. فالأمر يستلزم أن يقضى أسبوعاً فى البيت للاستشفاء قبل العودة إلى المدرسة، وهو متلهف على المدرسة كلها التى كان يفتقدها أكثر مما كان مهتماً حتى الآن بالقناع الذى يعرف أنهم سيضعونه على وجهه لتخديره. وفى أوائل الأربعينيات لم تكن المستشفيات تسمح كما هو الحال الآن للوالدين أن يمكثا طوال الليل مع أطفالهما، وهكذا سينام بدون أمه أو أبيه أو أخيه فى أى مكان بالقرب منه. فهذا ما يقلقه أيضاً. كانت أمه متحدثة لبقة ودودة، كما كانت بدورهن النساء اللواتى سجلنه فى مكتب الدخول والممرضات فى مركز التمريض حينما كان هو ووالدته فى طريقهما بجانب المصعد إلى جناح الأطفال فى الدور الخاص بالجراحة. وحملت أمه حقيبته طوال المساء؛ لأنها كانت صغيرة إلى جانب أنه من المفترض ألا يحمل أى شىء إلا بعد إصلاح الفتاق وشفائه بالكامل. لقد اكتشف ورماً فى منطقة البطن أعلى الفخذ الأيسر منذ شهور قليلة مضت، ولم يخبر أحداً به، لكنه حاول فقط أن يضغط

عليه بأصابعه ليجعله ينصرف. ولم يعرف على وجه التحديد ما هو الفتاق أو الأهمية التى يعطيها لورم يقع قريباً من خصيتيه.

من الممكن للطبيب فى هذه الأيام أن يصف العلاج، رافع قوى أو مايسمى كورسيه بشدادات معدنية إذا كانت الأسرة لا تريد أن تجرى جراحة لطفلها أو لا تستطيع أن تتحمل تكلفة هذه الجراحة. لقد عرف ولداً فى المدرسة كان يرتدى مثل هذا الكورسيه، وهو أحد الأسباب فى أنه لم يخبر أحداً عن الورم، إذ خشى أنه سيتعين عليه أيضاً أن يلبس الكورسيه ويكشف عنه للأولاد الآخرين حينما يغير سراويله ليرتدى الشورت فى حصة الجمنازيوم.

وبمجرد أن اعترف لوالديه فى النهاية، أخذه أبوه إلى عيادة الطبيب. وسرعان ما فحصه وتوصل إلى التشخيص وبعد نقاش مع أبيه لبضع دقائق رتبا للجراحة. كل شىء تم بسرعة فائقة وأكد له الطبيب، وكل فرد آخر تعامل معه فى العالم، أنه سوف يصير على ما يرام ثم مضى يمزح حول المسلسل الكوميدى "ليل أبنير" للرسوم الكرتونية الذى استمتعا هما الاثنين بقراءته فى الصحيفة المسائية.

قال والداه عن الجراح الدكتور "سميث" إنه أفضل من فى المدينة. ومثل أبى الولد، نشأ "د سميث" المولود فى "سولى سمولوويتز" فى الأحياء الفقيرة، فقد كان ابناً لأحد المهاجرين الفقراء.

بعد أقل من ساعة من وصوله إلى المستشفى كان على السرير فى غرفته، على الرغم من أن الجراحة لم تكن قد أُدرِجت على الجدول حتى صباح اليوم التالى. فهكذا كان يُعتنى بالمرضى حينئذ.

وفى السرير التالى له كان يوجد غلام أجرى جراحة فى الأمعاء ولم يكن مسموحاً له أن ينهض أو يمشى حتى ذلك الحين. جلست أم الولد الآخر بجانبه على السرير ممسكة بيد ابنها. وحينما جاء الأب للزيارة بعد العمل، تحدث الوالدان بـ"اليديش"، اللغة اليهودية الألمانية القديمة، وهو الأمر الذى جعله يعتقد أنهما كانا قلقين جداً من التحدث بلغة إنجليزية مفهومة فى وجود ابنهما. إن المكان الوحيد الذى سمع فيه اللغة الـ"يديشية" يُنطق بها هو محل المجوهرات، حينما كان مهاجرو الحرب يأتون بحثاً عن ساعات "السكافهاوزن"(*)، وهى الماركة التى يصعب العثور عليها، وكان والده يستغرق كثيراً من الوقت فى البحث ومحاولة العثور عليها. "سكافهاوزن". "أنا أريد سكافهاوزن"، هذا ربما يكون المدى الذى تصل إليه لغتهم الإنجليزية. ويستعملون بالطبع "اليديشية" فى الحديث كله، لكن الأفراد من طائفة "الهاسيد" اليهودية كانوا يسافرون تحديداً من "نيويورك" إلى "إليزابيث" مرة أو مرتين فى الشهر لاستكمال رصيد الماس للمحل. وبالنسبة لأبيه كان يرى أن المحافظة على مخزون كبير فى خزانته الخاصة سيكون باهظ

(*) نسبة إلى اسم مدينة شمال سويسرا.

التكلفة جداً. فقد كان تجار الألماس "الهاسيد" فى أمريكا أقل بكثير قبل الحرب منهم بعد الحرب، لكن أباه منذ البداية الأولى فضل أن يتعامل معهم بدلاً من التعامل مع بيوت الماس الكبيرة. إن تاجر الألماس الذى كان يأتى كثيراً - والذى حمله طريق الهجرة هو وأسرته فقط فى سنوات قليلة من وارسو إلى أنتويرب إلى نيويورك - كان رجلاً عجوزاً يرتدى قبعة سوداء كبيرة ومعطفاً أسود طويلاً من النوع الذى لا تراه أبداً على أى شخص آخر فى شوارع "إليزابيث"، ولا حتى على اليهود الآخرين. كان يضع لحية وسالفين، واحتفظ حول خصره بجراب صغير يحمل الماسات مخفية أسفل حاشية ملابسه الداخلية، وهو الأمر الذى تنافى دلالته الدينية دنيويته الناشئة حديثاً - ذلك أن شكله بدا فى الحقيقة مضحكاً - حتى بعد أن شرح والده لماذا مازالت طائفة "الهاسيد" يرتدون ما كان أجدادهم يرتدونه فى البلد القديم قبل مائتى سنة ويعيشون كثيراً بالطريقة التى كانوا يعيشون بها حينئذ، على الرغم من أنهم، كما أشار هو إلى والده مرة تلو الأخرى، الآن هم فى أمريكا، أحرار فى أن يلبسوا وأن يحلقوا وأن يتصرفوا كما يحلو لهم. وحينما تزوج أحد الأبناء السبعة لتاجر الألماس، دعا التاجر العائلة بأكملها إلى الزفاف فى بروكلين. كان لكل الرجال لحى وارتدت النساء الجمة أو الباروكة، وجلس الجنسان فى جانبين مختلفين من المعبد يفصل بينهما جدار - وفيما بعد فإن الرجال والنساء حتى لم

يرقصوا مع بعضهم البعض - وقد كره هو و"هواى" كل شيء يتعلق بهذا الزفاف. وحينما كان يصل تاجر الألماس إلى المحل يخلع معطفه لكنه يُبقى قبعته ولا يخلعها، وربما يظل الرجلان خلف فاترينة العرض يتكلمان مع بعضهما البعض بمودة باللغة "اليديشية"، اللغة التى استمر والدا أبيه وجداه يتحدثون بها فى منازل الهجرة مع أطفالهم إمريكيى المولد طوال حياتهم. ولكن حينما يحين الوقت للنظر على الماسات يمضى الاثنان إلى الحجرة الخلفية حيث كانت توجد هناك خزانة ومنضدة عمل وأرضية مشمع لونها بنى، ينحشران معاً خلف الباب الذى لم يكن يقفل أبداً بالكامل حتى لو نجحت بعد جهد فى أن تشبكه من الداخل، وكان يوجد بالحجرة أيضاً مرحاض وبالوعة صغيرة. وكان أبوه يدفع دائماً فورياً بشيك.

وبعد إغلاق المحل بمساعدة "هواى" - بجذب البوابة الشبكية بالأقفال عبر نافذة عرض المحل ويوصل منبه إنذار السرقة ويلقى بالأقفال على الباب الأمامى - ثم يذهب أبوه إلى حجرة أخيه الأصغر فى المستشفى ويأخذه بالأحضان.

لقد كان هناك حينما أوشك الدكتور سميث على أن يقدم نفسه. كان الجراح يرتدى بذلة رسمية بدلاً من المعطف الأبيض وقفز أبوه على قدميه بمجرد أن رآه يدخل الحجرة. صاح أبوه "إنه دكتور سميث".

قال دكتور سميث: "إذاً هذا هو مريضى"، وأخبره وهو يتقدم إلى جانب السرير ليربت بقوة على كتفه:

"حسناً، سنصلح هذا الفتاق غداً وسوف تكون بحالة جيدة كالجديد". وسأله: "ما المركز الذى تحب أن تلعب فيه؟"

"النهاية".

"حسناً، أنت سوف تعود وتلعب فى النهاية قبل أن تعرفها. أنت سوف تلعب أى شىء أنت تريده. لتنعم بنوم هادئ وليلة سعيدة وسوف أراك فى الصباح".

وقال والده وقد واتته الجرأة على أن يمزح مع الجراح الشهير: "وأنت أيضاً تمتع بنوم ليلة جيدة".

وحينما جاء العشاء، جلست أمه وأبوه وتحدثا معه كما لو كانوا جميعاً فى البيت. لقد تكلما بهدوء من أجل ألا يزعجا الولد المريض أو والديه اللذين كانا صامتين الآن، فمازالت الأم جالسة بجواره والأب يذرع المسافة ما بين السرير والممر على قدميه جيئة وذهاباً دون انقطاع. ولم يكن الولد مضطرباً بقدر اضطرابه حينما كانا حاضرين هناك.

وفى الثامنة وخمس دقائق، أدخلت ممرضة رأسها لتعلن انتهاء ساعات الزيارة. ومرة أخرى تكلم والدا الولد الآخر مع بعضهما البعض باليديشية، وبعد أن أعادت الأم تقبيل جبهة الولد غادرا الغرفة. كانت دموع الأب تتدحرج على وجهه.

إذاً غادر والداه عائدين إلى المنزل إلى أخيه ليتعشيا فى وقت متأخر مع بعضهما البعض فى المطبخ بدونه. قبلته أمه وضمته إليها بشدة. وقال أبوه

وهو يميل عليه يقبله بالمثل: "إن الأمر يشبه كأنما أفوضك فى مهمة فتركض إلى الحافلة أو أكلفك بوظيفة تؤديها فى المحل. ومهما كان ما أكلفك به أنت لا تخذلنى أبداً. جدير بالثقة - ولداى الجديران بالثقة! إننى أشعر بالفخر حينما أفكر فى ولدىّ. دائماً أنتما تعملان كولدين مجتهدين حريصين مثابرين مثلما تربيتما أن تكونا هكذا. تحملان المجوهرات النفيسة إلى "نيوآرك" وتعودان، ماسات ربع قيراط، نصف قيراط فى جيوبكما، ولم تضايقكما هذه المهام فى مثل عمريكما. أنتما تنظران إلى العالم مثل بعض النفايات وجدتماها فى طبق كريم كراميل بالمكسرات. حسناً فإذا كنتما تستطيعان القيام بهذه الوظيفة، تستطيعان أن تقوما بهذه. إنها مجرد وظيفة أخرى فى العمل طالما أنتما مهتمان. انجز العمل، لتنهى الوظيفة، ومع الغد سوف ينتهى الأمر برمته. أنت تسمع الجرس، تخرج لتقاتل. أليس كذلك؟".

قال الولد: "صحيح".

"مع الوقت أراك غداً، سوف يصلح الدكتور سميث هذا الأمر، وسوف يكون هذا نهاية هذا الشىء".

"صحيح".

"ولداى الرائعان!".

ثم ذهبا وبقى هو بمفرده مع الولد فى السرير المقابل. ووصل إلى المنضدة بجوار سريره، حيث

تكومت كتبه، وبدأ يقرأ "عائلة روبنسون السويسرية"(١). ثم جرب "جزيرة الكنز"(٢). ثم "كيم"(٣). ثم وضع يده تحت الغطاء ليتحسس الفتاق. لقد اختفى الورم. عرف من خبرته السابقة أنه كانت هناك أيام يهبط فيها الورم مؤقتاً، لكن هذه المرة كان متأكداً أنه قد اختفى تماماً وأنه لم يعد بحاجة لإجراء عملية. وحينما جاءت الممرضة لتقيس درجة حرارته، لم يعرف كيف يخبرها أن الفتاق قد اختفى وأنه ينبغى الاتصال بوالديه ليأتيا ويأخذاه إلى البيت. نظرت بسرور على عناوين الكتب التى أحضرها وأخبرته بأنه مصرح له أن ينهض من فراشه لاستخدام الحمام، لكن عليه من ناحية أخرى أن يسترخى فى القراءة حتى تعود لتطفئ الأنوار. ولم تقل شيئاً عن الولد الآخر الذى كان متأكداً من أنه سيموت.

فى البداية لم يستغرق فى النوم بسبب انتظاره أن يموت الولد، وبعد ذلك لم ينم لأنه لم يستطع التوقف عن التفكير فى الجثة الغارقة التى قذف بها

---

(١) The Swiss Family Robinson: رواية صدرت ١٨١١ كتبها القسيس السويسرى جوان رودلف ويس عن تشردم عائلة سويسرية وترمى إلى تعليم الأولاد القيم العائلية وعدم التبذير والتعامل مع الطبيعة والاعتماد على النفس.

(٢) Treasure Island: رواية مغامرات للأطفال صدرت ١٨٨٣ للكاتب الإسكتلندى روبرت لويس ستيفنسون تحكى عن القراصنة وكنز ذهبى مدفون.

(٣) Kim: سلسلة للأطفال من ٩ ـ ١٢ سنة.

التيار على الشاطئ فى الصيف الماضى. كانت جثة بحار على شاحنة نسفتها غواصة ألمانية. وعثر خفر السواحل على الجثة وسط بقع الزيت وأمتعة الناقلة المتناثرة على حافة الشاطئ الذى يقع قريباً من المنزل ذى الغرف الأربع الذى تستأجره عائلته لمدة شهر كل صيف. كانت المياه صافية معظم الأيام ولم يكن مصدر قلقه أن الرجل الغريق سيصطدم بساقيه العاريتين حينما يخطو إلى الأمواج المنحسرة. لكن عندما تخثر زيت الشاحنات المدمرة على الرمال وتجلط على باطن قدميه حينما عبر الشاطئ، كان مرعوباً خشية أن يتعثر فى إحدى الجثث. أو يصطدم فى مُخَرِب أتى إلى الشاطئ يعمل لحساب هتلر. كان خفر السواحل مسلحين بالبنادق أو المدافع الرشاشة وتصاحبهم فى الغالب كلاب مدربة، يقومون بالدوريات نهاراً وليلاً لمنع المخربين من النزول على الأميال المهجورة من الشاطئ. إلا أن البعض منهم تسلل دون أن يُكتشف، وكانوا معروفين، مع المواطنين المحليين المتعاطفين مع النازية، إنهم على اتصال بالزوارق التى تطوف ممرات الساحل الشرقى وتقوم بإغراق السفن فى نيوجيرسى منذ أن بدأت الحرب. كانت الحرب أقرب مما يتخيل معظم الناس وكذلك كان الرعب. لقد قرأ أبوه أن مياه نيوجيرسى "أسوأ مقبرة للسفن" على الخط الساحلى للولايات المتحدة بأكمله، والآن فى المستشفى لم يستطع أن يوقف كلمة "مقبرة" عن تعذيبه، ولا استطاع أن يمحو من ذهنه تلك الجثة الميتة المنتفخة التى

أخرجها خفر السواحل على بعد بوصات قليلة من الأمواج المتكسرة حيث كانت ممددة، بينما كان هو وأخوه ينظران من المنتزه على الشاطئ.

وفى وقت ما بعد أن استغرق فى النوم سمع جلبة فى الحجرة واستيقظ ليرى أن الستارة ما بين السريرين قد أُسدلت على السرير الآخر، وأنه كان هناك أطباء وممرضات يعملون على الجانب الآخر - استطاع أن يرى أشكالهم تتحرك ولم يستطع أن يسمع ما يهمسون به. وحينما برزت إحدى الممرضات من خلف الستارة، تأكدت أنه كان مستيقظاً، فجاءت إلى سريره وأخبرته برقة: "عد إلى نومك. ينتظرك يوم حافل غداً". فسأل الممرضة: "ما الذى يجرى؟". قالت: "لا شىء، نحن نغير ضماداته. أغلق عينيك ونم".

وأيقظوه مبكراً فى الصباح التالى من أجل العملية، وكانت أمه موجودة بالفعل فى المستشفى تبتسم له واقفة إلى جانب السرير.

"صباح الخير يا عزيزى. كيف حال ولدى الشجاع؟".

ناظراً عبر السرير الآخر، رأى أنه قد تجرد من فرشته. لا شىء يمكن أن يبين له ما الذى حدث أوضح ما يكون أكثر من منظر الفراش الخالى من الأغطية والملاءات والوسائد العارية والمكومة فى منتصف السرير الخالى.

قال: "الولد مات". متذكراً ما يكفى أن هذا الصغير كان فى المستشفى، لكن متذكراً حتى أكثر أنه

قد سجل موتاً. الأول كان هو الجثة المنتفخة، والثانى كان هذا الصبى. حينما استيقظ أثناء الليل ليرى الأشكال تتحرك خلف الستار، لم يكن بوسعه أن يفكر سوى أن الأطباء كانوا يقتلونه.

"أعتقد أنه قد نُقِل ياحبيبى. كان يجب أن ينتقل إلى طابق آخر".

وحينئذ فقط ظهر اثنان من الممرضين ليأخذاه إلى غرفة العمليات. وحينما أخبره أحدهما أن يستخدم الحمام، كان أول شىء فعله حينما أغلق الباب هو أن يفحص ما إذا كان الفتاق قد اختفى. لكن الورم قد عاد وأطل مرة أخرى. لم يكن هناك مفر من إجراء العملية الآن.

وسُمح لأمه أن تمشى إلى جانب ترولى المستشفى فقط حتى المصعد الذى سيأخذه إلى غرفة العمليات. وهناك دفعه الممرضان إلى المصعد الذى هبط بهم ليفتح على دهليز قبيح مروع يفضى إلى حجرة العمليات حيث كان الدكتور سميث يرتدى عباءة الجراحة ويضع كمامة بيضاء غيرت كل شىء يتعلق بهيئته - فهو ربما حتى لا يكون هو الدكتور سميث. هو يمكن أن يكون شخصاً آخر بالمرة، شخص ما لم يرب ابن المهاجرين الفقراء يسمى "سمولويتز"، شخص ما لم يعرف أبوه شيئاً عنه، شخص ما لم يعرفه أحد، شخص ما دخل متسللاً إلى حجرة العمليات والتقط سكيناً. وفى لحظة الرعب هذه حينما أدنوا كمامة الأتير على وجهه كما لو أنهم سيخنقونه، كان

بمقدوره أن يقسم إن الجراح أيا من كان هو قد همس: "الآن سأحوله إلى فتاة".

بدأت الصعوبة بمجرد أيام من عودته إلى البيت من إجازة لمدة شهر قضاها سعيداً كما لم يحدث من قبل منذ الإجازات العائلية على شاطئ جيرسى قبل الحرب. فهو قضى شهر أغسطس فى منزل عتيق شبه مفروش على طريق داخلى فى "مارتاس فينيارد"(*) مع امرأة ظل عشيقها الثابت لمدة سنتين. وحتى ذلك الحين لم يجرءا أن يجازفا بالافتراق عن بعضهما البعض يومًا واحدًا، وكانت التجربة نجاحًا ممتعًا وشهرًا رائعًا من السباحة والتنزه وممارسة جنس هادئ فى كل أوقات النهار. يسبحان عبر خليج إلى تل من الرمال حيث يستطيعان أن يرقدا بعيداً عن العيون يمارسان الجنس مباشرة تحت أشعة الشمس ثم ينهضان بأنفسهما ويرتديان المايوه ويسبحان راجعين إلى الشاطئ ويجمعان عناقيد المحارات من بين الصخور ويحملانها إلى البيت من أجل العشاء فى دلو ملىء بماء البحر.

فقط كانت اللحظات غير المستقرة عند المساء حينما كانا يمشيان على الشاطئ مع بعضهما البعض. فالبحر المظلم يتدافع للداخل بهديره المزمجر والسماء تعج وتزخر بالنجوم لتصنع لحظات لانتشاء "فايبى" لكنها أخافته. إن غزارة النجوم أخبرته بمنتهى

(*) Martha' Vineyard: جزيرة قرب الساحل الجنوبى فى كاب كود، ماسوشيستش، الولايات المتحدة الأمريكية.

الوضوح أنه محكوم عليه بالموت، وأن هدير البحر على بعد ياردات فقط - وأن كابوساً قاتم السواد يتخفى أسفل المياه المجنونة - جعله يريد أن يهرب من التهديد بالنسيان واللاوعى إلى منزلهما اللطيف المضىء تحت التأسيس. هذه لم تكن هى الطريقة التى قد شعر بها بعظمة البحر واتساعه وسماء الليل الكبيرة حينما خدم برجولة فى البحرية فى أعقاب الحرب الكورية مباشرة - ولا كانت أجراس الحساب تُقرع أبداً. لم يستطع أن يفهم من أين كان يأتى الخوف، وكان عليه أن يستعمل كل قوته ليخفيه عن "فاييى". لماذا يجب أن يفقد الثقة فى حياته تماماً بينما كان هو المسيطر عليها أكثر مما كان منذ سنوات؟ لماذا ينساق إلى تخيل نفسه على حافة العدم بينما التفكير الهادئ المباشر يخبره أن هناك حياة أكثر صلابة ستأتى؟ لكن ما يحدث كل ليلة أثناء سيرهما على الشاطئ تحت النجوم. لم يكن شعوراً انفعالياً أو مشوهاً أو متطرفاً بأية طريقة من الطرق، فلماذا إذاً فى مثل عمره يكون غارقاً ممسوساً بأفكار الموت؟ فهو قد كان عقلانياً ورحيماً ورجلاً مسالماً معتدلاً مجتهداً، كما ربما يتفق على هذا كل شخص قد عرفه جيداً، فيما عدا بالطبع الزوجة والولدين الذين ترك منزلهم والذين من المفهوم أنهم لم يستطيعوا أن يوازنوا العقلانية والتعاطف مع تخليه النهائى عن زواج فاشل والبحث فى مكان آخر عن علاقة جنسية مع امرأة يشتهيها.

لقد اعتقد أن معظم الناس ربما فكروا فيه كرجل عادى. وحينما كان شاباً ربما فكر فى "نفسه" كشخص

عادى، تقليدى وغير مغامر حتى أنه بعد دراسته للفن، بدلاً من أن يركز على رسمه الخاص وليعيش على أى نقود يستطيع أن يكتسبها من الوظائف الغريبة ـ التى كانت هى طموحه السرى ـ كان فى مجمله هو الولد الطيب الذى يلبى أمنيات والديه بدلاً من تحقيق أمانيه الخاصة، فتزوج وأنجب أطفالاً ومضى إلى الإعلان ليحقق عيشاً مضموناً. لم يفكر أبداً فى نفسه كأى شىء أكثر من إنسان عادى، والشخص الذى ربما يبذل أى شىء من أجل أن يستمر زواجه الحياة بطولها. لقد تزوج بمثل هذا التوقع تماماً. لكن الزواج أصبح بدلاً من ذلك زنزانة لسجنه، وهكذا وبعد الكثير من التفكير المعقد الذى استحوذ عليه أثناء العمل وتسلط عليه فى الوقت الذى ينبغى أن ينام فيه، بدأ معذباً يحفر على فترات متقطعة مهرباً إلى الخارج. أليس هذا هو ما قد يفعله الإنسان العادى؟ أليس هذا ما يفعله الإنسان العادى كل يوم؟ وعلى النقيض مما تخبر به زوجته كل فرد، لم يكن لديه اشتهاء لحرية طائشة يسعى لفعل أى شىء ولفعل كل شىء. بعيداً عن هذا. كان يتوق إلى شىء ثابت طوال الوقت الذى كره ما كان فيه. لم يكن هو الإنسان الذى يرغب فى أن يعيش حياتين. لم يحمل ضغينة سواء لقيود الإذعان أو راحته. ربما أنه قد أراد أن يفرغ ذهنه تقريباً من كل الأفكار الشائهة التى تتكاثر مع الخزى المتولد عن الحروب الزوجية الممتدة. إنه لم يكن يزعم أنه استثناء. فقط هو هش وغير آمن

ومرتبك. واقتناعاً بحقه كإنسان عادى فى أن ينعتق نهائياً من كل الشعور بالندم من الحرمانات التى تسبب فيها لأطفاله الأبرياء من أجل ألا يعيش نصف الوقت مشوشاً غير قادر على التفكير.

هل هو مرعوب من مواجهة النهاية؟ قال لنفسه أنا فى الرابعة والثلاثين! لتنزعج من النسيان، من اللاوعى، حينما تكون فى الخامسة والسبعين! فى المستقبل البعيد سيكون هناك ما يكفى من الوقت للمعاناة من الكارثة النهائية.

لكن بمجرد ما عاد هو و"فايبى" إلى مانهاتن. حيث عاشا فى شقق تقع فى مربعات سكنية تتكون كل منها من ثلاثين شقة منفصلة. حتى سقط مريضاً بصورة غامضة. فقد شهيته وطاقته ووجد نفسه مصاباً بالغثيان طوال اليوم، ولم يقدر على المشى إلى بلوكات المدينة دون أن يشعر بالضعف وعدم الاتزان.

لم يشخص الطبيب شيئاً معيناً يسوءه. كان قد بدأ يرى محللاً نفسياً فى أعقاب طلاقه، وأرجع المحلل النفسى حالته إلى الحسد لمخرج فنى زميل كان قد ترقى تواً إلى نائب رئيس فى الوكالة.

قال المحلل: "إن هذا الأمر يجعلك مريضاً".

استمر على التأكيد بأن زميله كان رئيسه منذ اثنتى عشرة سنة، وكان رائعاً فى تعاونه فى العمل ولم يكن يتمنى له إلا الخير، لكن المحلل استمر يعزف على نغمة أنه "حسد دفين"، كسبب خفى لاعتلال الصحة،

وحينما أثبتت الظروف أنه على خطأ، أظهر المحلل تماسكًا ولم يتراجع عن خطئه فى الحكم.

وتكرر ذهابه إلى عيادة الطبيب المعالج مرات عديدة فى الأسابيع التالية، بينما لم يكن يراه فى العادة إلا كل سنتين مرة واحدة من أجل مشكلة صغيرة. لكنه قد فقد وزنه وزادت نوبات الغثيان سوءاً. لم يشعر أبداً من قبل بمثل هذا التحلل، ولا حتى بعد أن ترك "سيسيليا" والولدين الصغيرين ونشأت المعركة القضائية حول شروط الانفصال، وقد وصفه محامى "سيسيليا" أمام المحكمة بأنه "زير نساء شهير" بسبب العلاقة التى كان يقيمها مع "فايبى" كاتبة الإعلانات فى الوكالة (والتى كانت المدعية تشير إليها فى المحكمة أمام الشهود - مضطهدة، منهكة، كما لو كانت قد وجدت نفسها توجه الاتهام ضد "الماركيز دى صاد" - باعتبارها رقم سبعة وثلاثين فى استعراض الخليلات"، حينما كانت فى الحقيقة تنظر بعيداً جداً إلى المستقبل، وأن "فايبى" كانت حتى ذلك الحين رقم اثنين). وعلى الأقل فإنه بالرجوع إلى هذا الوقت فقد كان هناك سبب مميز يمكن أن يفسر هذا الغموض الذى شعر به. لكن تحوله هذا ما بين ليلة وضحاها من شخص يتفجر بالصحة إلى آخر يفقد صحته بشكل غموضاً يتعذر تفسيره.

مر شهر. لم يستطع أن يركز فى عمله، تخلى عن السباحة فى الصباح، ومنذ ذلك الحين لم يستطع أن

ينظر إلى الطعام. وبعد ظهيرة يوم جمعة، غادر العمل مبكراً واستقل سيارة تاكسى إلى عيادة الطبيب بدون أن يكون على موعد أو بدون حتى اتصال تليفونى. الشخص الوحيد الذى هاتفه هو "فاييى" ليخبرها ما الذى كان يفعله.

أخبر الطبيب: "أدخلنى إلى المستشفى، أشعر أننى أموت".

اتخذ الدكتور الترتيبات، وكانت فاييى عند مكتب استعلامات المستشفى حينما وصل. ومع دقات الخامسة كان قد استقر فى إحدى الغرف، وتماماً قبل السابعة جاء إلى الغرفة رجل طويل أحمر الوجه حسن المظهر فى منتصف العمر يرتدى بذلة سهرة، وقدم نفسه على أنه هو الجراح الذى استدعاه الطبيب ليلقى نظرة عليه. كان بسبيله لإجراء ما رسمى لكنه أراد أن يتوقف أولاً ليجرى اختباراً سريعاً. ما فعله هو الضغط بيده إلى أسفل بقوة شديدة مباشرة على أعلى الفخذ بموضع اتصاله بالحوض على الجانب الأيمن. وعلى العكس من سلوك الطبيب المعتاد، استمر الجراح فى الضغط وكان الألم لا يحتمل. وتركه بعد أن أوشك على التقيؤ. قال الجراح: "ألم تشعر بأى ألم فى المعدة من قبل؟" قال: "لا". "حسنًا، إنها الزائدة الدودية لديك. تحتاج إلى إجراء عملية". "متى؟" "الآن".

رأى الجراح بعد ذلك فى غرفة العمليات. لقد غير ملابس السهرة بقميص الجراحة. قال الجراح: "لقد أنقذتنى من حفلة مملة".

لم يستيقظ حتى الصباح التالى. كانت تقف على حافة السرير مع "فايبى" أمه وأبوه يبدو عليهما التجهم. إن "فايبى" التى لم يعرفاها (إلا من خلال توصيفات "سيسيليا" المشوهة، وإلا من الخطب التليفونية المسهبة التى تنتهى "إننى أشفق على هذه الآنسة "موفيت الصغيرة" [١] أن تأتى بعد منى. إننى بأمانة أشفق على هذه الداعرة الكويكرية[٢] الصغيرة التافهة") قد اتصلت بهما وهما سرعان ما جاءا بالسيارة من نيوجيرسى. وبقدر ما استطاع، لاحظ أن الممرض يجد صعوبة فى توصيل أنبوبة تغذية بأعلى أنفه، أو ربما كان الممرض يحاول انتزاعها. نطق بأول كلماته. "لا تـ.......سنى!!" - قبل أن يفقد الوعى مرة أخرى.

كانت أمه وأبوه جالسين على مقعدين حينما استفاق مرة أخرى. بدا أنهما مازالا معذبين ومثقلين كذلك بالقلق والإجهاد.

تجلس "فايبى" على مقعد بجوار الفراش تمسك بيده. كانت شاحبة، امرأة شابة جميلة يتناقض مظهرها الرقيق مع اتزانها وثباتها. لم تظهر أى خوف ولم تسمح لأية مسحة منه أن تتسرب إلى نبرات صوتها.

خبرت "فايبى" الكثير من المعاناة الجسدية بسبب الصداع الحاد الذى تخلصت منه بدون أن يعاودها فى

(١) أغنية عن المرضات : Little Miss Muffet.

(٢) الكويكر Quaker: جماعة بروتستانتية.

العشرينات من عمرها لكنها تأكدت أنه الصداع النصفى حينما أصبح منتظماً ومتكرراً فى الثلاثينيات. لقد كانت محظوظة إلى حد كبير؛ لأنها تستطيع النوم حينما تهاجمها إحدى نوباته، لكن فى اللحظة التى تفتح فيها عينيها، اللحظة التى تكون واعية فيها، كان هناك - ألم لا يحتمل فى جانب رأسها، يضغط على وجهها وفكها، وخلف تجويف عينها، قدم فوق مقلة عينها تسحقها. بدأ الصداع النصفى بحلقات من الضوء، بقع ضوئية براقة تتحرك فى دوامات أمام عينيها حتى لو أغمضتهما، ثم تتقدم إلى الزغللة والدوار والألم والغثيان والقىء. أخبرته فيما بعد: "لا شىء يشبه أن تكون فى هذا العالم. لا يوجد شىء فى جسدى لكن الضغط فى رأسى". وكل ما استطاع أن يفعله من أجلها هو أن يبعد "آنية المطبخ" الكبيرة التى كانت تتقيأ فيها وينظفها فى الحمام، ثم يرجع على أطراف أصابعه إلى حجرة النوم ويضعها إلى جانب السرير من أجل أن تستعملها ثانية حينما يعاودها الغثيان. ولمدة أربع وعشرين أو ثمانى وأربعين ساعة التى يستمر فيها الصداع النصفى، لا تستطيع أن تتحمل وجوداً آخر فى الغرفة المظلمة، أكثر مما استطاعت أن تتحمل الشعاع الفضى الواهن من النور الذى يتسرب من أسفل الظلال المخيمة. ولم تفلح معها أية أدوية. لم ينجح معها أى منها. فبمجرد أن يبدأ الصداع النصفى لا شىء يوقفه.

سألها: "ما الذى حدث؟".

"انفجار فى الزائدة. حدث منذ بعض الوقت".

سأل بوهن: "إلى أى حد أنا مريض؟".

"توجد التهابات فى الغشاء البريتونى. وتوجد ارتشاحات فى الجرح. إنهم يجففونها. أنت تتعاطى جرعات كبيرة من المضادات الحيوية. لكنك بسبيلك لأن تجتاز الأزمة. سوف نسبح عبر الخليج مرة أخرى".

كان من الصعب تصديق هذا. فبالرجوع إلى عام١٩٤٢ أوشك أبوه على الموت من التهاب فى الزائدة الدودية لم يُشخص والتهابات حادة فى الغشاء البريتونى. كان فى الثانية والأربعين وله طفلان صغيران، وقد كان فى المستشفى - وبعيداً عن عمله - ستة وثلاثين يوماً. وحينما عاد إلى البيت كان ضعيفاً جداً استطاع بالكاد أن يقوم برحلة الطيران القصيرة متوجهاً إلى شقتهم، وبعد أن ساعدته زوجته من المدخل إلى حجرة النوم، جلس على حافة السرير، حيث، ولأول مرة فى حضور أطفاله، انهار وأخذ يبكى. ومنذ إحدى عشرة سنة مضت كان أخوه الأصغر "سامى" المحبوب الأثير من بين ثمانية أطفال قد مات من التهاب بالزائدة الدودية فى سنته الثالثة فى كلية الهندسة. كان عمره تسعة عشر عاماً، لأنه التحق بالكلية فى السادسة عشرة، وكان طموحه أن يكون مهندس طيران. فقط ثلاثة من الأطفال الثمانية

وصلوا إلى الدراسة الثانوية، وكان سامى فقط الأول الذى يدخل إلى الكلية. كان أصدقاؤه من أذكى الأولاد فى الحى، كلهم أطفال المهاجرين اليهود الذين يتقابلون بانتظام فى بيوت بعضهم البعض ليلعبوا الشطرنج وليتحدثوا بحماسة فى السياسة والفلسفة. كان هو قائدهم، عداء فى فريق سباقات الركض، وفذ فى الرياضيات، يتمتع بشخصية متألقة. فاسم "سامى" هو الذى يترنم به أبوه ويهدهده حينما يبكى فى غرفة النوم، ليجد نفسه يعود إلى وسط العائلة التى كان هو العائل لها.

العم "سامى"، وأبوه، والآن هو ـ الثالث منهم الذى يصاب بانفجار الزائدة والتهاب الغشاء البريتونى. وبينما هو يغيب ويعود إلى الوعى لليومين التاليين، تأرجح مصيره ما بين مصير "سامى" ومصير أبيه.

طار أخوه من كاليفورنيا فى اليوم الثانى، وحينما فتح عينيه رآه إلى جانب فراشه، حضور عظيم ورقيق، رابط الجأش واثقاً مرحاً، فكر لا يمكن أن أموت و"هواى" موجود هنا. انحنى "هواى" وقبَّل جبهته، وما إن جلس على المقعد الجانبى وأخذ يد المريض حتى توقف الزمن، اختفى الحاضر، وعاد إلى الطفولة، ولد صغيراً مرة أخرى، محصناً من القلق محمياً من الخوف فى وجود أخيه الغامر الذى نام فى السرير المجاور لسريره.

مكث "هواى" لأربعة أيام. وفى خلال الأيام الأربعة هذه حلق أحياناً إلى مانيلا وسنغافورة وكوالالمبور وعاد. لقد بدأ فى "جولدمان ساكس"(*) كساعٍ، وبسرعة انتقل من تسليم الرسائل إلى رئيس مكتب تجارة العملات، وبدأ يستثمر لحساب نفسه فى الأوراق المالية. وانتهى به المطاف إلى مُحَكِم للعملات للمؤسسات المالية الأجنبية العملاقة ومتعددة الجنسيات. مؤسسات تصنيع الخمور فى فرنسا وصناعة الكاميرات فى ألمانيا الغربية وصناعة السيارات فى اليابان، التى حول لها الفرنكات والماركات الألمانية والين إلى دولارات. سافر كثيراً ليقابل عملاءه واستمر يستثمر فى الشركات التى أرادها، وفى الثانية والثلاثين كان لديه المليون الأول.

أرسل "هواى" والديه إلى البيت ليستريحا، وانضم إلى "فايبى" ليراه فى أسوأ حال، وجهز للطيران فقط بعد أن تلقى تأكيدات الدكتور بأن الأزمة قد انتهت. وفى الصباح الأخير، قال له "هواى" بهدوء: "حصلت على فتاة جيدة هذه المرة. لا ترتكب خطأً فادحاً، لا تدعها تذهب".

لقد فكر فى سعادته عند نجاته، هل هناك أبداً رجل كانت شهيته للحياة مُعدية مثل شهية "هواى"؟ هل كان هناك أبداً أخ محظوظ مثلى؟

(*) بنك استثمارى رائد فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ظل فى المستشفى لمدة ثلاثين يوماً. كانت معظم الممرضات لطيفات، نساء شابات نابهات يتحدثن بلكنة أيرلندية وبدا دائماً أن لديهن الوقت ليثرثرن قليلاً حينما يقمن بعيادته وفحصه. كانت "فايبى" تحضر مباشرة من العمل للعشاء فى غرفته كل ليلة؛ فلم يستطع أن يتخيل كيف ستكون الحاجة والعجز فى مواجهة الطبيعة الخارقة للمرض بدونها. فلم يكن أخوه يحتاج إلى أن يحذره من أن يتركها تذهب؛ فهو لم يكن أبداً من قبل على هذا القدر من التصميم على الإبقاء على أى أحد.

من خلف هذه النافذة استطاع أن يرى أوراق الأشجار تتحول حينما انتهت أسابيع أكتوبر، وحينما جاء الجراح قال له: "متى سأخرج من هنا؟ سيضيع علىَّ خريف عام ١٩٦٧." أنصت الجراح بانتباه ثم قال بابتسامة: "ألم تلحق به بعد؟ أنت تقريباً ضيعت كل شىء".

مرت اثنتان وعشرون سنة. اثنتان وعشرون سنة من الصحة الرائعة والثقة اللامحدودة بالنفس التى تنبع من اللياقة الجسمانية. جنبته الخصم اللدود؛ وهو المرض والفجيعة التى تنتظر عند الجناحين. وكما أكد لنفسه بينما كان يمشى تحت النجوم فى "فينيارد" مع "فايبى" فإنه سيقلق من النسيان حينما يكون فى الخامسة والسبعين.

كان يقود سيارته إلى نيوجيرسى بعد العمل كل يوم تقريباً لما يزيد عن شهر ليرى والده الذى كان

يحتضر، حينما أُصيب بضيق شديد فى التنفس فى حمام سباحة "نادى سيتى أتليتيك" فى إحدى أمسيات أغسطس عام ١٩٨٩ لقد عاد من جيرسى حوالى نصف ساعة مبكراً وقرر أن يستعيد توازنه بأن يسبح سريعاً قبل أن يتوجه إلى البيت. وفى العادة هو يسبح لمسافة ميل واحد فى النادى كل صباح. ونادراً ما يتعاطى الخمور ولم يدخن أبداً، وكان وزنه تماماً كما ينبغى أن يكون حينما حصل على منزل من البحرية عام ١٩٥٧ وبدأ وظيفته الأولى فى الإعلان. وعرف من محنته مع الزائدة الدودية والتهاب الغشاء البريتونى أنه كان معرضاً مثل أى شخص آخر أن يُصاب بالأمراض الخطيرة، لكن نظراً إلى النظام الذى اتبعه طوال حياته من حياة صحية، لم يكن من المعقول بالمرة أن يكون مرشحاً لإجراء جراحة فى القلب. لكن ببساطة، لم تسر الأمور على هذا النحو.

لكنه لم يستطع أن ينهى أول لفة بدون أن يمسك بجانب الحمام ويتعلق هناك فاقد القدرة على التنفس تماماً. خرج من حمام السباحة وجلس على الحافة مدلياً قدميه فى الماء محاولاً أن يهدئ من نفسه. كان متأكداً من أن صعوبة التنفس ناجمة عن أنه رأى إلى أى مدى تدهورت حالة والده فقط فى الأيام القليلة الماضية. لكن فى الحقيقة كانت حالته هو التى تدهورت، وحينما ذهب إلى الطبيب فى الصباح التالى أظهر رسم القلب(*) تغيرات جذرية دلت على وجود

(*) EKG رسم قلب كريانى أو ما يسمى إلكترو كاردو جرام.

انسداد كبير فى الشريان التاجى. وقبل أن ينتهى اليوم كان يرقد على سرير فى وحدة رعاية القلب فى مستشفى مانهاتن، حيث أُجريت له "قسطرة" استكشافية، تقرر على إثرها ضرورة الجراحة. كانت هناك أنابيب أكسجين فى أنفه، وكان موصلاً بالكثير من سلوك التوصيل بجهاز التحكم فى القلب خلف سريره. السؤال الوحيد الذى كان مطروحاً هو هل يجب إجراء الجراحة فى الحال أو فى الصباح التالى. كانت الساعة حينئذ الثامنة مساءً، ومن ثَمَّ كان القرار الانتظار إلى الغد. ومع ذلك كان يستيقظ أحياناً فى الليل ليكتشف أن سريره يحيط به الأطباء والممرضات، تماماً مثل السرير فى حجرة الصبى حينما كان فى التاسعة. طوال هذه السنوات ظل يحيا بينما الولد قد مات. والآن كان هو ذلك الصبى.

كان هناك نوع ما من الدواء يُعطى من خلال الوريد، وفهم بصورة غامضة أنهم يحاولون تفادى أزمة ما. لم يقدر على فهم ما الذى يتمتمون به مع بعضهم البعض، ولابد حينئذ أنه استغرق فى النوم، لأنه حينما استفاق وجد نفسه فى الصباح وهو متكوم على عربة ترولى المستشفى لنقله إلى غرفة العمليات.

لم تكن زوجته ـ الثالثة والأخيرة ـ هذه المرة تحمل أى وجه شبه مع "فايبى"، فلم تكن عاملاً مخففاً للخطر فى الحالات الطارئة. وبالتأكيد لم تكن تبعث الثقة فى صباح الجراحة حينما سارت إلى جوار عربة

الترولى تبكى وتعتصر يديها وتهزها، لتصرخ فى النهاية وقد فقدت السيطرة "وماذا بشأنى أنا؟".

كانت شابة وغير مجربة، وربما أرادت أن تقول شيئاً آخر مختلفاً، لكنه أخذه على أنها قصدت ما الذى سيحدث لها إذا لم تكتب له النجاة. فأخبرها: "شىء واحد كل مرة، أولاً دعينى أموت. بعد ذلك سوف آتى لأساعدك على التحمل".

استمرت العملية لمدة سبع ساعات. وكان فى معظم هذا الوقت متصلاً بجهاز القلب-الرئة الذى كان يضخ الدماء ويتنفس له. وأجرى له الأطباء خمس عمليات ترقيع، وخرج من الجراحة بجرح طويل أسفل منتصف صدره، وآخر ممتد من أعلى الفخذ حتى كاحل قدمه اليمنى. وهى القدم التى أخذوا منها الوريد الذى صنعوا منه كل الوصلات فيما عدا واحدة.

وحينما بدأ يتنبه فى غرفة الإنعاش، كانت هناك أنبوبة أسفل حلقومه وهى التى شعر كما لو أنها سوف تخنقه حتى الموت. لقد كان وجودها هناك مرعباً، لكن لم تكن هناك طريقة يستطيع أن يبلغ بها ذلك إلى الممرضة التى كانت تخبره أين هو وما الذى حدث له. وحينئذ فقد الوعى، وحينما أفاق ثانية كانت الأنبوبة مازالت هناك تخنقه إلى حد الموت، لكن الممرضة تشرح له الآن أنها سوف تُنزع بمجرد أن يتقرر أنه يستطيع التنفس اعتماداً على نفسه. وفوقه بعد ذلك

كان وجه زوجته الشابة حيث استطاع أن يعاود النظر إليها.

لقد تركها تتحمل المسئولية بمفردها حينما ذهب إلى المستشفى: لتجد أن السيارة أُخِذت من الشارع الذى كانت تقف فيه وحُجِزت فى جراج عام. وتحول الأمر إلى مهمة من العسير جداً أن تقوم بها، ولذلك كما علم فيما بعد أنه اضطرت إلى أن تطلب من أحد أصدقائه المساعدة. إنه لم يكن متأكداً من الكيفية التى يلاحظ بها طبيب القلب المسائل غير الطبية حتى أتى الرجل ليراه فى منتصف فترة إقامته فى المستشفى وأخبره أنه لم يستطع أن يتأكد من المستشفى ما إذا كانت زوجته ستستطيع أن توفر له العناية فى بيته. "لا أحب أن أقول هذه الأشياء، فى الأساس لأن هذا ليس من صميم عملى، لكنى لاحظتها حينما أتت للزيارة. المرأة شاردة تماماً، غائبة وليس لها حضور، وليس أمامى اختيار إلا أن أحمى مريضى".

وفى هذا التوقيت وصل "هواى". طار إلى هنا من أوروبا، حيث كان قد ذهب للعمل وأيضاً للعب البولو. فهو الآن يستطيع أن يمارس التزلج والرماية ويلعب أيضاً البولو المائية والبولو من على ظهر الفرس، حيث اكتسب البراعة فى هذه الأنشطة بطول العالم العظيم بعد أن ترك مدرسته الثانوية للطبقة المتوسطة فى "إليزابيث"، حيث كان يلعب كرة القدم مع الأولاد الكاثوليك الأيرلنديين والإيطاليين الذين كان آباؤهم

يعملون فى أحواض السفن فى الميناء فى الخريف، ويمارس القفز بالزانة فى الربيع، وطوال الوقت يجمع درجات جيدة تكفيه ليحصل على منحة دراسية لجامعة بنسلفانيا ثم الالتحاق بـ"وارتون سكول" ليحصل على ماجستير إدارة الأعمال. وعلى الرغم من أن والده كان يحتضر فى مستشفى فى نيو جيرسى وأخاه فى الإنعاش بعد جراحة قلب مفتوح فى مستشفى فى نيويورك - وعلى الرغم من أنه قضى الأسبوع يسافر من جانب أحدهم إلى جانب الآخر - إلا أن حيوية "هواى" لم تخفت أبداً ولا وهنت قدرته على بعث الثقة. إن الرعاية الصحية من جانب الزوجة ذات الثلاثين ربيعاً التى ثبت أنها غير قادرة على أن تزود زوجها المعتل الذى يبلغ ستة وخمسين عاماً كانت أكثر من أن تُعَوَّض بالدعم المرح لـ"هواى". لقد كان "هواى" هو الذى اقترح تأجير ممرضتين خاصتين للقيام بالمهمة - ممرضة بالنهار "ماورين مرازيك"، وممرضة فى المساء "أوليف باروت" - ليحلا مكان المرأة التى كان يشير إليها على أنها "فتاة الإعلانات العاجزة بشكل مروع"، وأصر بعد ذلك على الرغم من اعتراضات أخيه على أن يتحمل التكاليف بنفسه. قال "هواى": "لقد كنت مريضاً بصورة خطيرة، لقد عبرت الجحيم، وطالما كنت هنا فلن يوجد شئ أو شخص سوف يعترض طريق شفائك. هذه مجرد هدية لضمان سرعة استعادتك لصحتك". كانا واقفين مع بعضهما البعض عند مدخل الغرفة. تحدث "هواى"

واضعاً ذراعيه المفتولتين حول أخيه. وكثيراً مثلما كان يفضل أن يظهر فائقاً فى ابتهاجه إلى الادعاء بالوجدان ورقة الشعور، إلا أن وجهه - نسخة واقعية من وجه أخيه - لم يقدر على أن يخفى مشاعره حينما قال: "علىَّ أن أقبل فقدان أمى وأبى. لكن لن أقوى أبداً على أن أفقدك"، ثم غادر ليجد الليموزين التى كانت تنتظره بالطابق الأرضى لتعود به إلى المستشفى فى "جيرسى".

كانت "أوليف باروت"، ممرضة المساء، امرأة سوداء ضخمة، يذكره وزنها ومشيتها وحجمها بـ"إليانور روزفلت"(*). كان أبوها يمتلك مزرعة شجر توت فى جاميكا، واحتفظت أمها بدفتر للأحلام كانت تسجل فيه كل صباح أحلام الأطفال. وفى الأمسيات التى كان فيها منزعجاً جداً إلى الحد الذى يستعصى معه النوم كانت "أوليف" تجلس على مقعد بجوار الفراش وتخبره بحكايات بريئة عن حياتها كطفلة فى مزرعة التوت. تميزت بلهجة جزر الهند الغربية وبصوت محبب، فصوتها كان يهدئه كما لم تفعل أية امرأة منذ أن كانت أمه تجلس وتتحدث إليه فى المستشفى بعد عملية "الفتاق". وفيما عدا الأسئلة التى يسألها لـ"أوليف"، ظل صامتاً يناضل بشكل محموم ليبقى حياً. تحول الأمر إلى أنهم سيمسكون به فى الوقت المحدد: حينما أدخلوه إلى المستشفى كان شريانه التاجى على أية حال مسدوداً بنسبة من

(*) زوجة الرئيس فرنكلين روزفلت.

تسعين إلى خمسة وتسعين بالمائة، فقد كان على حافة أزمة قلبية حادة وربما قاتلة.

كانت "ماورين" بارزة الصدر باسمة ذات شعر أحمر، نشأت نشأة قاسية فى عائلة أيرلندية سلوفاكية فى "برونكس"، وكانت لها طريقة جافة فى الحديث مفعمة بالثقة فى النفس تنفرد بها الطبقة العاملة الخشنة. إن مجرد رؤيتها يرفع معنوياته حينما تصل فى الصباح حتى لو كان إعياء ما بعد الجراحة قاسياً جداً لدرجة أن مجرد الحلاقة - وليس حتى الوقوف للحلاقة لكن فى أثناء الجلوس - كان يجهده، ويتعين عليه أن يعود إلى السرير ليغفو طويلاً بعد أن قام بأول تمشية فى رواق المستشفى معها إلى جانبه. فقد كانت "ماورين" هى التى استدعت دكتور والده من أجله وأطلعته على حالة الرجل المحتضر حتى كانت له القوة للتحدث إلى الدكتور بنفسه.

لقد قرر "هواى" بصورة قاطعة أنه حينما يترك المستشفى، سوف تعتنى به "ماورين" و"أوليف" (مرة أخرى على نفقة "هواى") على الأقل لمدة أسبوعين فى المنزل. ولم تُستشر زوجته وامتعضت من الترتيب ومن الإشارة ضمنياً إلى أنها لم تكن قادرة على أن تعتنى به بنفسها. وكانت تستاء على وجه الخصوص من "ماورين" التى لم تجهد نفسها فى إخفاء ازدرائها لزوجة المريض.

وفى البيت استغرق الأمر أكثر من ثلاثة أسابيع قبل أن يبدأ الإجهاد فى التقلص، وشعر أنه مستعد

حتى فى التفكير فى العودة إلى العمل. وبعد العشاء كان يتعين عليه أن يعود إلى السرير فى المساء ببساطة بعد المجهود من الأكل جالساً على المقعد، كما أنه ينبغى عليه فى الصباح أن يجلس على كرسى بلاستيك حتى يستحم بنفسه تحت الدش. وبدأ يمارس ألعاب الجمباز المحدودة مع "ماورين" وحاول كل يوم أن يضيف عشر ياردات أخرى إلى تمشية ما بعد الظهر التى كان يمشيها معها. وكان لـ"ماورين" صديق تحدثت عنه معه. مصور تليفزيونى توقعت أن تتزوجه بمجرد أن يجد وظيفة دائمة. وحينما كانت تنتهى من عملها فى نهاية اليوم، كانت تحب أن تتناول كأسين من الشراب مع جيرانها الدائمين فى بار قريب من الركن الذى تعيش فيه فى "يوركفيل". كان الطقس جميلاً، ولذا فإنه حينما خرجا للتمشية لاحظ بإعجاب كيف أنها ارتدت القميص النسائى الملتصق والتنورة القصيرة والصندل الصيفى. كان الرجال ينظرون إليها طوال الوقت، ولم تكن تجزع من شخص ما يحدق فيها بسخرية لاذعة بل تتباهى فى افتخار. إن وجودها إلى جواره جعله يشعر أنه أقوى أثناء النهار ويعود إلى البيت من التمشيات مبتهجاً بكل شىء فيما عدا بالطبع زوجته الغيورة التى تصفق الأبواب وأحياناً تخرج مندفعة من الشقة بعد لحظات فقط من دخوله هو و"ماورين" إلى الداخل.

لم يكن هو المريض الأول الذى يقع فى غرام ممرضته. وربما لم يكن هو المريض الأول الذى يقع

فى حب "ماورين". لقد كانت لها علاقات متعددة على مر السنين، القليل منها مع رجال حالتهم أسوأ مما كان عليه، والذين استردوا مثله عافيتهم بالكامل بمساعدة حيوية "ماورين". وتتجلى موهبتها فى أن تجعل المرضى مفعمين بالأمل ومتفائلين لدرجة أنهم بدلاً من أن يغمضوا أعينهم على لطخة خارج العالم، يفتحونها على اتساعها لينظروا حضورها النابض بالحياة ويستعيدوا الشباب.

حضرت "ماورين" على الفور إلى نيوجيرسى حينما مات أبوه. كان مازال غير مسموح له بالقيادة لذلك فقد تطوعت هى وساعدت "هواى" فى إجراء الترتيبات مع "دار الجنازات كريتزر" فى "الاتحاد". لقد أصبح أبوه متديناً فى السنوات العشر الأخيرة من حياته، وبعد أن تقاعد وفقد زوجته اعتاد الذهاب إلى "المعبد" على الأقل مرة فى اليوم. وقبل مرضه الأخير بفترة طويلة طلب من "الحبر" أن يقيم قداس دفنه بالكامل وفقاً للشعائر اليهودية، كما لو كانت اليهودية هى الإجابة الأقوى التى يمكن أن تتواءم مع الموت. بالنسبة لأصغر أبناء أبيه، كانت اللغة لا تعنى شيئاً. وهو قد توقف مع "هواى" عن أخذ اليهودية مأخذ الجد فى الثالثة عشرة - الأحد بعد السبت من إقامة شعائر الدخول فى اليهودية(*) - ولم تطأ قدمه منذ ذلك الحين أرض المعبد. حتى أنه قد ترك المساحة

(*) Bar Mitzvah: شعائر التكليف فى الديانة اليهودية والدخول إليها وتقام للأولاد عند الثالثة عشرة بموجب الشريعة اليهودية.

المخصصة للديانة فارغة فى استمارة دخول المستشفى خشية أن تدفع كلمة "يهودى" أحد أحبار اليهود أن يقوم بزيارة غرفته وأن يأتى للحديث بالطريقة التى يتحدث بها "الأحبار". فالديانة كانت كذبة تعرف عليها مبكراً فى الحياة، وهو قد وجد كل الديانات عدوانية، واعتبر خرافاتها التافهة لا معنى لها، طفولية، ولم ترق إلى النضج الكامل - حديث الأطفال والاستقامة والغنم، المؤمنون الطماعون. فلا توجد لديه شعوذة أو دجل فيما يتعلق بالموت والإله، لا خيالات أو أوهام مريضة بالنسبة له. توجد فقط أجسادنا، ولدت لتعيش وتموت وفقاً لشروط تقررت من الأجساد التى عاشت وماتت قبلنا. وإذا أمكن القول بأنه أسس مكاناً فلسفياً لنفسه، فقد كان هو أنه - قد توصل إليه مبكراً وبالبديهة، ومهما كانت العناصر التى يتركب منها فقد كان هذا هو الأمر كله. وإذا كان يتعين عليه أن يكتب "سيرة ذاتية"، فسوف يسميها "حياة جسد إنسان وموته". لكن بعد التقاعد حاول أن يصبح رساماً، ليس كاتباً، ومن ثَمَّ فقد أطلق هذا الاسم على سلسلة من لوحاته التجريدية.

لكن لا شىء مما اعتقده أو ما لم يعتقده قد أثر فى اليوم الذى دُفِن فيه أبوه بجوار أمه فى الجبانة القديمة على طريق جيرسى السريع.

وفوق البوابة التى دلفت من خلالها العائلة إلى المساحة الأصلية للمقبرة التى يعود تاريخها للقرن التاسع عشر، هناك قوس يتصل باسم المقبرة المنقوش

بالعبرية؛ حيث توجد نجمة سداسية محفورة عند طرفى القوس. كان عمودا البوابة فى حالة سيئة من التشظى والتصدع ـ بفعل الزمن والتخريب ـ وبوابة حديدية ملتوية مع قفل صدئ، ولا تحتاج البوابة لأن تدفعها من أجل أن تفتح لتدخل منها، لكنها كانت مقفلة إلى نصف مفصلاتها وتغوص عدة بوصات فى الأرض. وكذلك لم يكن حجر النصب التذكارى للموتى ـ محفوراً عليه بالنقوش العبرية، وتعرضت أسماء العائلة المدفونة عند أسفل قاعدتها بالمثل إلى الطمس بفعل العوامل الجوية لعقود من الزمن. وعلى رأس الصفوف المتراصة من أعمدة الأضرحة كان يقع القبر الفخم الصغير فى القسم القديم والذى كان بابه الفولاذ المثقب ونافذتاه الأصليتان ـ اللتان ربما كانتا وقت دفن المقيمين فيها ملونتين بالزجاج المعشق ـ قد أُحكِم إغلاقه بكتل حجرية للحماية ضد مزيد من التخريب، لذلك فإن المبنى المربع الصغير بدا مثل مخزن أدوات مهجور أو دورة مياه فى الهواء الطلق لم تعد صالحة للاستعمال أكثر منها مكاناً للإقامة الأبدية يتماشى مع الشهرة أو الثروة أو حالة هؤلاء الذين شيدوه ليأوى موتى عائلتهم. ومروا ببطء فيما بين أعمدة الأضرحة التى نُقش عليها فى الأساس بالعبرية لكنها كانت تحمل فى بعض الحالات أيضاً كلمات بالـ"يدشية" و"الروسية" و"الألمانية" وحتى "المجرية". ومعظمها محفور عليها "نجمة داوود"، بينما بعضها الآخر مزينة بشكل أكثر تفصيلاً بزوج من

الأيادى المباركة أو إبريق أو شمعدان بخمسة فروع. وفى قبور الأطفال الصغار والرضع ـ هناك أكثر من حفنة من هذه القبور التى لم تكن كثيرة مثل قبور النساء الشابات اللواتى متن فى العشرينيات والأكثر احتمالاً أثناء ولادتهن ـ جاءت على شكل ضريح عرضى يعلوه نحت لخروف أو مزيناً بنقش على شكل جذع شجرة نصفها العلوى مقطوع وحيث تصطف بطريقة واحدة من خلال الممرات المنحنية غير المستوية الضيقة للمقبرة الأصلية باتجاه القبور الأحدث، وهى الأماكن الشمالية المخصصة بحيث يمكن أن تقام فيها الجنازات، فكان من الممكن ـ فقط فى هذه المقبرة اليهودية الصغيرة، التى أقامها على حقل على حدود "إليزابيث" و"نيوآرك"، مع آخرين، أبو المجتمع المرحوم صاحب أجمل محل مجوهرات فى "إليزابيث" ـ أن يتذكروا عدد الذين هلكوا حينما قتلت الأنفلونزا عشرة ملايين فى عام ١٩١٨.

ألف وتسعمائة وثمانية عشر: فقط واحدة من السنوات المرعبة ذات الوفرة الهائلة من الجثث المنثورة "لسجل إنجازات فظائع السنة" التى ستلطخ ذاكرة القرن العشرين إلى الأبد.

وقف إلى جانب القبر مع ما يقرب من خمسة وعشرين شخصاً من أقاربه مع ابنته على يمينه تمسك بيده وابنيه من خلفه وزوجته إلى جانب ابنته. يقف هناك تقريباً يستوعب الكارثة ذلك أن موت الأب أثبت أنه عدوان سافر على قوته البدنية وتحدٍ صارخ لها.

كان شيئاً جيداً أن "هواى" بجانبه على اليسار، يد واحدة تلتف بقوة حول وسطه، لتمنع أى شىء غير مرغوب فيه أن يحدث.

لم يكن أبداً من الصعب أن تعرف ما الذى يشكل سواء أمه أو أبيه. فقد كانا أماً وأباً. لكن المسافة المأخوذة بين جسديهما كانت الآن شاغرة. إن حياتهما الفعلية بطولها قد ولت. فتابوت أبيه، صندوق الصنوبر الأملس، قد أُنزِل بالسيور إلى الفتحة التى حُفِرت من أجله إلى جانب تابوت زوجته. هناك سوف يمكث الرجل الميت ساعات أكثر حتى من تلك التى قضاها يبيع المجوهرات والتى كانت فى حد ذاتها ليست رقماً لنسخر منه. فهو قد فتح المحل فى عام ١٩٣٣ فى العام الذى وُلِد فيها ابنه الثانى، وتخلص منه عام ١٩٧٤ ليكون بذلك قد باع خواتم الخطوبة والزفاف إلى ثلاثة أجيال من عائلات "إليزابيث". كيف حصل على رأس المال فى عام ١٩٣٣وكيف عثر على العملاء فى عام ١٩٣٣ لقد ظل هذا دائماً سراً مستعصياً على ابنيه. لكن الأمر بالنسبة لهما أنه قد ترك وظيفته خلف منضدة الساعات فى محل "آبيلسونس إيرفينجتون" على الطريق السريع "سبرينجفيلد" حيث كان يعمل من التاسعة صباحاً إلى التاسعة مساءً، أيام الإثنين والأربعاء والجمعة والسبت، ومن التاسعة إلى الخامسة يوم الثلاثاء والخميس، ليفتح محله الصغير "إليزابيث" الذى يبلغ اتساعه خمسة عشر قدماً، مع الكتابة بالحروف

السوداء على نافذة العرض والتى تقرأ من أول يوم "ماسات ـ مجوهرات ـ ساعات"، وتحتها بحروف أصغر "ساعات دقيقة وساعات حائط وإصلاح مجوهرات". وفى عمر الثانية والثلاثين كان فى النهاية يجلس للعمل لمدة ستين وسبعين ساعة فى الأسبوع من أجل عائلته بدلا من العمل لأجل "موى آبيلسون". ومن أجل إغراء جموع الطبقة العاملة الكبيرة فى "إليزابيث"، ولتجنب نفور أو خوف عشرات الألوف من المسيحيين المواظبين على الكنيسة فى مدينة الميناء من اسمه اليهودى، فقد بسط ائتمانه الحر. فقط يتأكد أنهم يدفعون على الأقل ثلاثين أو أربعين فى المائة. وهو لم يتوقف أبداً عن منحهم الائتمان طالما كان يغطى تكلفته منه، فكانوا يأتون فيما بعد ويدفعون قليلاً من الدولارات كل أسبوع، أو لا يدفعون شيئاً، وهو لم يهتم بالفعل. فلم يكن أبداً يرجع بالإفلاس على المدين، وظل افتراض حسن النية المتولد عن مرونته أكثر مما ينبغى. وزين المحل ببضع قطع فنية مطلية بالفضة لجعله جذاباً ـ أطقم شاى، صوان، أطباق خزفية، شمعدانات والتى كان يبيعها بأسعار بخسة ـ وفى وقت الكريسماس كان لديه دائماً مشهد ثلجى لـ"سانتا كلوز" فى النافذة، لكن مسحة العبقرية تجلت فى تسمية المحل ليس باسمه وإنما أطلق عليه اسم "محل مجوهرات الرجل العادى"، وهو معروف الآن فى أنحاء المقاطعة بأكملها من جموع الناس العاديين الذين أصبحوا زبائنه المخلصين حتى باع مخزنه إلى تاجر

جملة وتقاعد فى عمر الثالثة والسبعين. قال لولديه: "إنها صفقة كبرى للأناس العاملين أن يشتروا الماسة، بغض النظر عن كونها صغيرة. فتستطيع الزوجة أن تتقلدها من أجل التجمل وتستطيع أن تتقلدها من أجل المكانة. وحينما تفعل، فهذا الرجل ليس مجرد عامل. هو رجل لزوجة تتقلد الألماس. فزوجته تمتلك شيئاً لا يفنى. لأنه فيما وراء الجمال والمكانة والقيمة، الألماسة لا تفنى. قطعة من التراب غير قابلة للفناء، وتضعها فى يدها مجرد امرأة هالكة!".

إن السبب فى تركه "آبيلسونس"، هو أنه كان مازال محظوظاً بما يكفى لأن يجمع الشيكات خلال الانهيار وفى أسوأ سنوات الكساد، والسبب فى جرأته على أن يفتح محلاً خاصًا به فى مثل هذه الأوقات الرديئة كان بسيطاً: لكل من سأل، وحتى لهؤلاء الذين لم يسألوا، كان يشرح: "ينبغى أن يكون لدى شىء ما لأتركه لولدىَّ".

كان هناك جاروفان مستقيمان بحديهما مغروسان فى كومة كبيرة من التراب على أحد جانبى القبر. وقد اعتقد أن حفارى القبور قد تركاهما هناك ليستخدماهما فيما بعد ليردما القبر. لقد تخيل أنه كما حدث فى جنازة أمه، أن كل معزٍ سوف يتقدم إلى الحفرة ليلقى حفنة من التراب على غطاء التابوت، وبعدها سوف ينصرف الجميع إلى سياراتهم. لكن أباه طلب من "الحبر" الشعائر اليهودية التقليدية، وهى التى اكتشف الآن أنها تُطلق على الدفن عن طريق

المشيعين وليس عن طريق العاملين فى المقبرة أو أى شخص آخر. لقد أخبر "الحبر" "هواى" مسبقاً، لكن "هواى" لأى سبب من الأسباب لم يخبره، وهكذا كان مندهشاً الآن حينما ارتدى أخوه برشاقة حلة قاتمة وقميصاً أبيض ورباط عنق غامقاً وحذاءً أسود لامعاً، ومشى ليجذب أحد الجاروفين من الكومة ثم يملأ كف الجاروف حتى يصبح مترعاً بالتراب. ثم مشى بخطوة رسمية إلى رأس المقبرة، وقف هناك لحظة ليستجمع أفكاره، وأمال الجاروف قليلاً إلى أسفل، وترك التراب يتسرب ببطء. وحينما لامس الغطاء الخشبى للتابوت وأحدث صوتاً أدركه كل شخص بطريقة تختلف عن الآخر.

وعاد "هواى" ليغرس حرف الجاروف فى الهرم المتهدم من التراب الذى يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام. كانوا بسبيلهم إلى أن يجرفوا هذا التراب مرة أخرى إلى الحفرة حتى يصبح مستوى قبر أبيه متساوياً مع أرضية المقبرة المجاورة.

لقد استغرق الأمر قرابة الساعة لنقل التراب. واستعان كبار السن من بين الأقارب والأصدقاء غير القادرين على استعمال الجاروف، بإلقاء قبضات من التراب فوق التابوت، وهو نفسه لم يستطع أكثر من ذلك، ومن ثم وقع على عاتق "هواى" وأبناء "هواى" الأربعة وابنيه - وجميعهم الستة رجال أقوياء البنية فى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات - أن يقوموا بالعمل الشاق. وفى مجموعات من اثنين، وقفوا إلى

جانب الكومة، وجاروف بجاروف، نقلوا التراب من الكومة إلى الحفرة. وكل بضعة دقائق، يأخذ فريق آخر مكانه، وبدا له عند نقطة معينة كما لو أن هذا العمل لن ينتهى أبداً، كما لو أنهم كانوا هناك مستمرين فى دفن أبيه إلى الأبد. وأفضل ما استطاع أن يفعله ليكون مستغرقاً فى مباشرة عملية الدفن المؤلمة مثل أخيه وابنيه وأبناء أخيه هو أن يقف على حافة القبر ويلاحظ التراب يغطى التابوت. وأخذ يلاحظ حتى بلغ الغطاء الذى كان مزيناً فقط بنقش لنجمة داوود، ثم أخذ يلاحظه وهو يغطى الغطاء. إن أباه سيرقد ليس فقط فى التابوت بل تحت ثقل التراب، وسرعان ما رأى فى الحال فم أبيه كما لو لم يكن هناك تابوت، وكما لو أن التراب الذى يلقونه إلى القبر يستقر عليه مباشرة، ويملأ فمه ويعمى عينيه ويسد فتحتى أنفه ويغلق على أذنيه. أراد أن يخبرهم أن يتوقفوا، أن يأمرهم ألا يواصلوا ـ لم يكن يريدهم أن يغطوا وجه أبيه ويغلقوا الممرات التى استحلب منها الحياة. لقد كنت أنظر على هذا الوجه منذ وُلِدت. أوقفوا دفن وجه أبى! لكنهم قد وجدوا إيقاعهم، هؤلاء الأولاد الأقوياء ولا يستطيعون أن يتوقفوا ولن يتوقفوا، ليس حتى لو ألقى بنفسه فى القبر وطلب أن يتوقف الدفن. لا شىء يمكنه أن يوقفهم الآن. إنهم فقط سيستمرون، يدفنونه هو أيضاً، إذا كان هذا ضرورياً لإنجاز المهمة. توقف "هواى" على الجانب وقد غطى العرق جبينه يراقب ابناء العم الستة

يكملون المهمة بحيوية واضعين الهدف نصب أعينهم للردم بسرعة هائلة، ليس كمشيعين يتولون عبء أداء شعيرة قديمة، لكن مثل عمال من نمط قديم يغذون الفرن بالوقود.

كان الكثير من العجائز يبكون الآن ويمسكون ببعضهم البعض. لقد انتهى هرم التراب. خطا "الحبر" إلى الأمام، وبعد تمسيد السطح بلطف وعناية بيديه المجردتين استخدم عصا ليرسم على التربة الرخوة أبعاد المقبرة.

راقب اختفاء والده من العالم بوصة إثر أخرى. كان مجبراً أن يتابعه تماماً حتى النهاية. لقد كان يشبه موتاً ثانياً، موتاً ليس أقل فزعاً من الأول. فجأة كان يتذكر تدفق الإحساس الذى حمله إلى أسفل إلى طيات حياته حينما رفع أبوه فى المستشفى كل واحد من الأحفاد الرضع الثلاثة للمرة الأولى، متأملاً فى "راندى" ثم بعد ذلك "لونى" ثم فى النهاية "نانسى" بالنظرة نفسها المعبرة عن البهجة المرتبكة.

"هل أنت بخير؟" سألت "نانسى" وهى تضع ذراعيها حوله بينما وقف هو ينظر على الخطوط التى رسمتها العصا على التربة مرسومة هناك كما لو كانت من أجل لعبة للأطفال. ضمها بشدة إليه وقال: "نعم أنا بخير". ثم تنهد، وحتى ضحك حينما قال: "الآن أنا أعرف ماذا يعنى أن تُدفن. أنا لم أُدفن حتى اليوم". قالت "نانسى": "أنا لم أر أى شىء بهذه القسوة فى

حياتى". فأخبرها: "ولا أنا، حان الوقت لنذهب"، ومعه و"نانسى" و"هواى" فى المقدمة، غادر المشيعون ببطء، وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يبدأ فى تفريغ نفسه من كل ما قد رآه تماماً وفكر فيه، إلا أن العقل يلف ويعود بينما تخطو الأقدام بعيداً.

ولأن الريح كانت تهب بينما القبر يُردم، استطاع أن يشعر بطعم التراب داخل فمه تماماً بعد أن غادروا المقبرة وعادوا إلى نيويورك.

ولمدة السنوات التسع التالية ظلت صحته مستقرة. مرتان فاجأته أزمة، لكنه على العكس من الولد فى الفراش التالى لفراشه، فقد تجنب الفاجعة. ثم فى عام ١٩٨٨ حينما بدأ ضغط دمه يرتفع ولم يستجب لتغييرات العلاج، قرر الأطباء أن لديه انسداداً فى شريانه الكلوى نجم عنه لحسن الحظ حتى الآن فقط توقف بسيط لوظيفة الكلية، ودخل إلى المستشفى لتوسيع الشريان الكُلوى. إلا أن حظه حالفه وحُلت المشكلة مرة أخرى بإدخال دعامة نُقلت على أنبوب القسطرة للمناورة من خلال فتحة فى شريان الفخذ ومن خلال الأورطى للوصول إلى السدد.

كان عمره خمسة وستين، متقاعد حديثاً، والآن هو مطلق لثالث مرة. ذهب إلى "الرعاية الصحية لكبار السن" وبدأ يقبض من التأمين الاجتماعى، وجلس مع المحامى ليكتب وصية. كتابة وصية - كان

هذا أفضل جزء فى الشيخوخة وربما حتى فى الموت، الكتابة، ومع مرور الوقت، التحديث والمراجعة والتمحيص الدقيق لإعادة كتابة المرء لوصيته. وفيما بعد سنوات قليلة أوفى بوعد قطعه على نفسه مباشرة بعد هجمات ١١ سبتمبر، وانتقل من مانهاتن إلى قرية التقاعد "ستارفيتش بيتش" على شاطئ جيرسى، على بعد ميلين فقط من ساحل المدينة حيث تقضى عائلته عطلة فى جزء من كل صيف. فشاليهات "ستارفيتش بيتش" عبارة عن منازل جذابة من طابق واحد ذات أسقف خشبية ونوافذ ضخمة وأبواب زجاجية منزلقة تفضى إلى طاولات فى الخلفية فى الهواء الطلق؛ كل ثمانى وحدات متصلة لتُكَوِّن مجموعة أبنية على شكل نصف دائرة تحيط بحديقة فواكه وبركة صغيرة. وامتدت التسهيلات والمساعدات اللازمة للمقيمين المسنين الخمسمائة الذين عاشوا فى هذه الأبنية على مساحة مائة فدان تضمنت ساحات تنس وحديقة عامة كبيرة مع مشتل زهور ومركز تدريب ومكتب بريد ومركزًا اجتماعيًا مع غرف اجتماعات ومرسمًا للفخار وورشة نجارة ومكتبة صغيرة وغرفة كمبيوتر بثلاث نهايات طرفية وطباعة مشتركة وغرفة كبيرة للمحاضرات وعروض صور الحائط يقدمها زوجان عادا لتوهما من سفرياتهما بالخارج. وكذلك هناك حمام سباحة خارجى من الحجم الأوليمبى المزود بسخان فى قلب القرية، وبالمثل حمام داخلى صغير، ومطعم هادئ فى السوق التجارى المتواضع عند نهاية

شارع القرية الرئيسى مع مكتبة لبيع الكتب ومحل للمشروبات الروحية ومحل هدايا وبنك ومكتب سمسرة ووسيط عقارى ومكتب محام ومحطة غاز. فقط السوبر ماركت يقع على مسافة قصيرة بالسيارة، وإذا كنت قادراً على المشى كما كان هو حال معظم المقيمين، فإنك تستطيع بسهولة أن تمشى مسافة نصف ميل إلى الممشى الخشبى وتنزل منه إلى شاطئ المحيط الواسع؛ حيث يوجد عمال الإنقاذ يؤدون واجبهم طوال الصيف.

وبمجرد أن انتقل إلى القرية، حول غرفة المعيشة المشمسة فى شقته ذات الحجرات الثلاث إلى مرسم فنى، وهو الآن بعد أن قام بجولته اليومية للمشى لمدة ساعة لمسافة أربعة أميال على الممشى، يقضى معظم المتبقى من كل يوم وهو يحقق طموحه طويل المدى يرسم بسعادة، وهو الروتين الذى يجنى منه كل المتعة التى توقعها. فهو لم يفتقد أى شىء فيما يتعلق بنيويورك فيما عدا "نانسى" الطفلة التى لا يتوقف حضورها عن إسعاده، والتى لم تعد كأم مطلقة بطفلين فى الرابعة من عمرهما، مؤمنة بالطريقة التى كان يأمل فيها. وكنتيجة لطلاق ابنتهما، وتزايد وطأة القلق عنده وعند "فايبى" بالتساوى، فإنهما قد مضيا إليها وقضيا منفصلين وقتاً أطول مع "نانسى" أكثر من الوقت الذى قضياه معها منذ ذهابها إلى الكلية فى منطقة الغرب الأوسط. وهناك قابلت الشاعر الذى سيكون زوجها، الطالب الخريج المترفع علناً على

الثقافة التجارية وخصوصاً تلك المتعلقة بخط عمل أبيه، والذى بمجرد أن اكتشف نفسه لم يعد ببساطة نصف الزوجين الهادئين المفكرين اللذين أحبا أن ينصتا إلى موسيقى الحجرة ويقرأ الكتب فى أوقات فراغهما، بل أب لتوءم وجد أن منغصات التواجد المنزلى لعائلة صغيرة هو أمر غير محتمل. وخصوصاً لشخص يحتاج النظام والهدوء ليكمل أول رواية. واتهم "نانسى" بتدعيم هذه الكارثة الكبرى بالشكوى المستمرة من اعتراضه سبيل غريزتها الأمومية. وبعد العمل وفى إجازات نهاية الأسبوع غيب نفسه أكثر وأكثر من الفوضى فى شقتهم محدودة المساحة من خلال صخب الصغيرين الذى كان يبعث فيه الجنون، وحينما ثار فى النهاية وترك وظيفته فى النشر. وتخلى عن أبوته كان عليه أن يرجع بوضوح إلى "مينيسوتا" ليستعيد سلامته العقلية ويستأنف تفكيره ليتجنب المسئولية كثيراً على قدر استطاعته.

وإذا كان والدها قد استطاع أن يجد طريقه، فإن "نانسى" والتوءم سوف ينتقلون إلى الشاطئ أيضاً. وكان يتعين عليها أن تذهب إلى العمل يومياً على خط "جيرسى" تاركة الصغيرين للمربيات وجليسات الأطفال، بتكلفة نصف مقدار "المساعدة" فى نيويورك، وهو ربما سيكون قريباً للعناية بهما وليأخذهما إلى ومن حضانة المدرسة ليلاحظهما على الشاطئ، وهكذا، فإن الأب والابنة يمكنهما أن يتقابلا على العشاء مرة فى الأسبوع، وليتمشيا معاً فى عطلات

نهاية الأسبوع. سوف يعيشون إلى جوار البحر الجميل وبعيداً عن تهديد "القاعدة". وفى اليوم التالى لتدمير "البرجين" قال لـ"نانسى": "لقد تعمق عندى غرام متجذر للبقاء. سأخرج من هنا". وبعد عشرة أسابيع تماماً، فى أواخر نوفمبر، كان قد غادر المكان. لقد عذبه التفكير فى أن ابنته وطفليها قد يسقطون ضحايا لهجوم إرهابى خلال شهوره الأولى على الشاطئ، على الرغم من أنه بمجرد أن تخلص من القلق على نفسه، تبدد إحساسه بالمخاطرة التافهة التى كانت تلح عليه كل يوم منذ أن خربت الكارثة إحساس كل فرد بالأمان وسببت اهتزازاً لا سبيل إلى تجنبه فى حياتهم اليومية. لقد كان يفعل أى شىء تقريباً يمكن أن يفعله عقلانياً ليستطيع أن يبقى على قيد الحياة. فهو دائماً - ومثل معظم الآخرين - لم يشأ أن تأتى النهاية قبل موعدها الذى ستأتى فيه بدقيقة واحدة.

وفى السنة التى أعقبت تركيب الدعامة للشريان الكلوى أجرى جراحة لانسداد كبير آخر، هذه المرة فى شريانه السباتى الأيسر، أحد الشريانين الأساسيين اللذين يمتدان من الأورطى إلى قاع الجمجمة ويغذى المخ بالدماء، والذى إذا تُرِك مسدوداً يمكن أن يسبب الإصابة بالشلل أو حتى الموت المفاجئ. وفُتِح جرح فى الرقبة، ثم أُغلِق الشريان الذى يغذى المخ بإحكام لمنع الدم من أن يتدفق من خلاله. ثم شُقت فتحة لكشط "التجلط" الذى يسبب الانسداد. ربما من المفيد أن

يلقى العون من أجل ألا يواجه هذه العملية الدقيقة بمفرده، لكن "نانسى" كانت مستغرقة فى وظيفتها وفى متطلبات رعاية طفليها بدون رفيق، وفى هذا الوقت لم يكن هناك شخص آخر غيرها فى حياته يمكن أن يطلب منه المساعدة. كذلك هو لم يرد أن يخل بجدول أعمال أخيه العصيب ويتسبب فى جعله قلقاً، وخصوصاً أنه سيخرج من المستشفى فى الصباح التالى، فى حالة عدم حدوث مضاعفات. لم تكن هى أزمة التهاب الغشاء البريتونى أو جراحة تغيير خمسة شرايين - فمن وجهة نظر طبية لم تكن شيئاً غير عادى، أو هكذا قاده إلى هذا الاعتقاد الجراح المختص الذى أكد له أن إزالة الجلطة من باطن الشريان السباتى هو إجراء جراحى معتاد فى الأوعية الدموية، وأنه سيسترد عافيته فى غضون يوم أو اثنين.

لذلك فهو قد قاد سيارته بمفرده فى الصباح الباكر إلى المستشفى وانتظر فى غرفة الانتظار الزجاجية فى طابق الجراحة مع عشرة أو اثنى عشر رجلاً آخر فى عباءة المستشفى موضوعين على الجدول فى الدورة الأولى للعمليات الجراحية فى هذا اليوم. وتظل الغرفة ربما مليئة على هذا النحو حتى وقت متأخر يقرب من الرابعة بعد الظهر. وسوف يخرج معظم المرضى من الناحية الأخرى، وأيضاً على مدار الأسابيع، القليل منهم قد لا يفعلون، إلا أنهم يمضون الوقت فى قراءة الصحف الصباحية وحينما يُنادى على اسم واحد منهم وينهض ليغادر إلى غرفة

العمليات، يعطى الأجزاء من صحيفته لأى شخص يطلبها. ربما قد تظن من الهدوء فى الغرفة أنهم كانوا بسبيلهم أن يقصوا شعرهم بدلاً من، مثلاً، قطع الشريان المؤدى للمخ.

وفى لحظة ما، بدأ الرجل المجاور له وهو يسلمه القسم الرياضى لهذا اليوم، يتحدث معه. ربما كان فقط فى أواخر الأربعينات أو أوائل الخمسينات من عمره، لكن جلده لم يكن ليناً كما لم يكن صوته قوياً أو واثقاً. قال: "أولاً ماتت أمى، وبعدها بستة شهور مات أبى، وبعد ذلك بثمانية شهور ماتت شقيقتى الوحيدة، وبعدها بسنة انهار زواجى وأخذت زوجتى كل شىء كان لدىَّ. وحدث هذا حينما بدأت أتخيل شخصاً ما قادماً إلىّ قائلاً: نحن الآن سوف نقطع ذراعك اليمنى كذلك. هل تظن أنك تستطيع أن تأخذ هذا؟ ومن ثَمَّ قطعوا ذراعى اليمنى. وفيما بعد أتوا حينئذ وقالوا: الآن سوف نقطع ذراعك الأيسر. وحينما تم ذلك، عادوا يوماً ما ليقولوا: هل تريد أن ترحل الآن؟ هل هذا يكفى؟ أم أنه ينبغى أن نبدأ فى ساقيك؟ وطوال الوقت كنت أفكر، متى، متى أرحل؟ متى أشعل الغاز وأضع رأسى فى الفرن؟ متى يكون الكافى كافياً؟ هذه هى الكيفية التى عايشت بها أحزانى لمدة عشر سنوات. استغرقت عشر سنوات. والآن انقضى الحزن فى النهاية وبدأ هذا الخراء".

وحينما أتى دوره، وصل الزميل بجانبه ليسترد القسم الرياضى واقتادته ممرضة إلى غرفة العمليات.

بالداخل كان هناك ستة أشخاص يتحركون تحت النور الساطع يجرون التجهيزات لجراحته. لم يستطع أن يحدد الجراح فيما بينهم. ربما يطمئنه أن يرى وجه الجراح البشوش، لكن إما أن الدكتور لم يدخل غرفة العمليات بعد أو أنه كان منتحياً فى ركن ما بحيث يتعذر رؤيته تماماً. كان العديد من الأطباء الأصغر يرتدون بالفعل كمامات الجراحة وجعله النظر إليهم يفكر فى الإرهابيين. سأله أحدهم هل يريد مخدراً عاماً أو بنجاً موضعياً، بالطريقة التى ربما يسأله بها النادل إذا كان يفضل نبيذاً أحمر أو أبيض. لقد كان مرتبكاً - لماذا ينبغى لقرار التخدير أن يُتخذ متأخراً هكذا؟ فقال: "لا أعرف، أيهما الأفضل؟". "بالنسبة لنا، الموضعى. فيمكننا التحكم فى وظيفة المخ بصورة أفضل إذا كان المريض فى وعيه". "هل تخبرنى أن ذلك أكثر أماناً؟ هل هذا هو ما تقوله؟ إذًا أفعل هذا".

كان خطأً، خطأ لا يُغتفر، لأن العملية استمرت ساعتين وكان رأسه ملفوفاً بشكل يبعث على الرعب، وأخذ التقطيع والكشط يحدث قريباً جداً من أذنه، استطاع أن يسمع كل حركة تصدر عن أدواتهم الجراحية، كما لو كان فى داخل غرفة لتكبير الصوت أو ترجيع للصدى. لكن لم يكن هناك شىء يمكن فعله. لا قتال يمكن خوضه. أنت تتحمل مستسلماً. فقط أعط نفسك لها طالما كانت باقية.

لقد نام جيداً تلك الليلة، وفى نهار اليوم التالى شعر أنه بخير، وعند الظهر بعد أن كذب وقال إن

صديقاً كان ينتظره تحت ليأخذه، سُمِح له بالخروج وذهب إلى ساحة السيارات وقاد بحرص بنفسه إلى البيت. وحينما عاد إلى الشقة وجلس فى مرسمه ينظر على اللوحات الزيتية استطاع سريعاً أن يستأنف الرسم، وانفجر فى البكاء، مثلما فعل أبوه بعد أن عاد إلى البيت من مرضه العضال القريب بالتهاب الغشاء البريتونى.

لكن بدلاً من الانتهاء، الحال مستمر؛ الآن لا تمر سنة بدون أن يدخل المستشفى. ابن لوالدين كبيرى السن، شقيق لرجل يكبره بست سنوات والذى كان يبدو لائقاً بدنياً بالصورة التى كان عليها حينما كان يلعب الكرة لمدرسة توماس جيفرسون العليا، كان لا يزال فقط فى الستينات حينما بدأت صحته تتراجع وبدا جسده مهدداً طوال الوقت. لقد تزوج ثلاث مرات، وكانت له عشيقات وأطفال ووظيفة رائعة حقق فيها النجاح، لكن يبدو أن الموت المراوغ الآن قد أصبح هو الشغل الأساسى لحياته وقصة اضمحلاله الجسدى بأكملها.

وفى السنة التى أعقبت جراحة الشريان السباتى، أجرى صورة للأوعية الدموية، ومنها اكتشف الطبيب أنه كان مصاباً بأزمة قلبية صامتة فى الجدار الخلفى بسبب انسداد من تجمع دموى. صعقته الأنباء على الرغم من أن "نانسى" لحسن الحظ قد جاءت بالقطار لتصاحبه إلى المستشفى، حيث ساعدته طمأنتها له على أن يستعيد اتزانه. ومضى الأطباء

حينئذ يجرون عملية توسيع، وأدخلوا دعامة فى شريانه الأيسر الأمامى الهابط، بعد توسيعه بالبالون لفتح الشريان، حيث تكونت ترسبات جديدة من الصفائح الدموية. ومن المنضدة استطاع أن يراقب أنبوب القسطرة يتلوى متجهاً إلى أعلى إلى الشريان التاجى. كان تحت تأثير مخدر خفيف، وكان قادراً على أن يتابع العملية كلها على شاشة جهاز المراقبة التليفزيونية، كما لو كان جسده يخص شخصاً آخر. وبعدها بسنة أجرى عملية توسيع أخرى وتركيب دعامة أخرى فى واحد من الشرايين التى عليها ترسبات والتى بدأت تضيق. وفى السنة التالية تعين عليه تركيب ثلاث دعامات لمعالجة ثلاثة انسدادات فى شريان واحد، والتى كان موقعها كما أخبره الطبيب فيما بعد جعل إجراء العملية من الصعوبة بمكان.

وكالعادة، ليحتفظ بعقله فى مكان آخر، استدعى محل أبيه، وأسماء الماركات التسعة من الساعات، والماركات السبعة للساعات الكبيرة التى كان أبوه هو الموزع المعتمد لها، ولم يحقق أبوه الكثير من المال من بيع الساعات والمنبهات، لكنه تحمل عبئها؛ لأنها كانت مادة ثابتة تجتذب متسوقى الفترينات من الشارع. إن مافعله ببذور هذه الذكريات أثناء كل عملية من عمليات توسيع الشرايين كان هو: أن ينشغل بشىء آخر لينصرف عن الهزل والمزاح الذى يتبادله الأطباء والممرضات بدون توقف بينما هم قائمون على العمل، وينشغل عن موسيقى الروك التى تتدفق فى الغرفة

الباردة المعقمة، بينما هو يرقد مربوطاً إلى طاولة العمليات وسط كل الماكينات المرعبة المصممة لتحفظ مرضى القلب أحياء، ومنذ اللحظة التى يشرعون فيها لتخدير أعلى فخذه، ويثقبون الجلد لإدخال أنبوب القسطرة إلى الشريان، سوف يلهى نفسه بأن يتلو من تحت أنفاسه القوائم التى رتبها أبجدياً أولاً كفتى صغير يساعد فى المحل بعد المدرسة - "بينروس"، "بولوفا"، "كروتون"، "إلجين"، "هاميلتون"، "هيلبروس"، "أوفيستون"، "وولتام"، "ويتنوير" - مُركزاً فى الوقت نفسه على الشكل المميز للأعداد المثبتة على قرص الساعة بينما هو يرتل اسم ماركتها، وهو يمسح الأرقام من واحد حتى اثنى عشر ويرجع مرة أخرى. ثم ربما يبدأ بالساعات الكبيرة - "جنرال إليكتريك، إنجيرسول، ماك كلينتوك، نيو هافن، سيث توماس، تيليكرون، ويستكلوكس" - متذكراً كيف كان ملء الساعة يتكتك وكيف كانت تهمهم الساعات الكهربائية، حتى يسمع الدكتور فى النهاية يعلن بأن العملية انتهت، وأن كل شىء تم على ما يرام. وبعد أن يضغط مساعد الطبيب على الجرح، يضع كيساً رملياً على أعلى الفخذ ليمنع النزيف، ومع الثقل الذى يستقر هناك كان يتعين عليه أن يرقد بدون حركة فى فراش المستشفى لمدة الساعات الست التالية. والغريب، هو أن عدم قدرته على الحركة كان أسوأ ما فى الأمر - بسبب الآلاف من الأفكار اللاإرادية التى تغمر زمن الحركة البطيئة - لكن الصباح التالى، إذا

سارت الأمور بشكل طيب طوال الليل، يحضرون صينية عليها إفطار غير صالح للأكل لينظر إليه، وحزمة تعليمات ما بعد عملية توسيع الشرايين ليتبعها، وبعد الحادية عشرة صباحاً ربما يُطلق سراحه. وفى ثلاث مناسبات متفرقة، يصل إلى البيت، ويخلع ملابسه متعجلاً ليأخذ حماماً فى أمس الحاجة إليه، فيجد أن حشوات موضع أقطاب جهاز رسم القلب الكهربائى مازالت ملتصقة به؛ لأن الممرضة وهى تساعده على الخروج نسيت أن تنزعها من صدره وترميها فى النفايات. وفى أحد الصباحات التالية وهو تحت الدش يجد أنه لا أحد قد اهتم بنزع إبرة التغذية المتصلة بالوريد مباشرة، وهى التى يسمونها "هيبلوك" Heplock فى ساعده الذى اكتسى باللون الأسود والأزرق، ومن ثَمَّ فقد ارتدى ملابسه وقاد سيارته إلى وحدة عيادة صغيرة فى "سبرينج لاك" لإزالة الهيبلوك قبل أن تصبح مصدراً للعدوى.

وفى السنة التى أعقبت الدعامات الثلاث، سرعان ما رقد على طاولة العمليات بينما كان جهاز كهربائى لتنظيم الصدمات الكهربائية(*) يُدخل بثبات لحمايته من التطور الجديد الذى أصبح يهدد حياته، فالجرح فى الجدار الخلفى لقلبه، والجزء الرافض على الحافة، جعلاه مرشحاً لاضطرابات خطيرة فى ضربات القلب، فغُرِس المنظم الكهربائى وهو علبة

(*) defibrillator: جهاز يرسل صدمات كهربائية إلى القلب فى حالة اضطراب ضرباته.

معدنية رقيقة بحجم ولاعة السجائر تقريباً؛ أسفل الجلد فى الجزء العلوى من صدره على بعد بوصات قليلة من كتفه اليسرى، موصلة بسلك يؤدى إلى قلبه المعرض للتهديد، مجهز لأن يتحكم فى الصدمة ليصحح ضربات قلبه - ويخدع الموت - إذا أصبحت هذه الضربات غير منتظمة بصورة خطيرة.

وكانت نانسى معه فى هذه العملية أيضاً، وفيما بعد، حينما عاد إلى غرفته وأنزل أحد جانبى رداء المستشفى ليريها الانتفاخ الظاهر، الذى كان هو المنظم المطمور، اضطرت أن تدير وجهها. فقال لها: "عزيزتى، إنه لحمايتى - لا يوجد ما يدعو للقلق بشأنه". "أنا أعرف أنه من أجل حمايتك. إننى سعيدة أنه يوجد مثل هذا الشىء لحمايتك. إنها مجرد صدمة أن أراه لأن ..."، لتجد نفسها لأول مرة منذ زمن طويل تأتى إلى كذبة مريحة، فقالت: "... لأنك دائماً أنت فى شباب مستمر". "حسناً، أنا أكثر شباباً بها عنى بدونها - فسوف أكون قادراً على أن أفعل كل شىء أحب أن أفعله، فقط بدون أن أخاف من اضطرابات ضربات القلب التى تعرضنى لمخاطر كبيرة". لكنها كانت شاحبة منزعجة، ولم تستطع أن توقف الدموع من أن تنساب على وجهها: لقد أرادت أباها أن يكون بالصورة التى كان عليها حينما كانت فى العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة، بدون معوقات أو عجز - وهكذا أراد هو - ربما لم ترد هى هذا بالقدر الذى أراده هو، لكنه فى هذه اللحظة

وجد أنه أسهل عليه أن يتقبل حزنه عن أن يقبل بحزنها. كانت الرغبة قوية فى قول شىء ما رقيق ليخفف من مخاوفها، على الرغم من أنه، مرة أخرى ومن البداية، كانت هى الأكثر هشاشة فيما بينهما الاثنين.

هو لم يتوقف أبداً بالفعل عن القلق بشأنها، ولا هو قد فهم كيف حدث أن مثل هذه الطفلة كانت ابنته. فهو لم يفعل بالضرورة الأشياء الصحيحة ليجعلها تحدث، حتى لو كانت "فاييى" قد فعلت. لكن يوجد هناك مثل هؤلاء الناس، أناس رائعون بصورة مدهشة - معجزات، حقيقة - فحظه الرائع أن واحدة من هذه المعجزات كانت ابنته غير القابلة للفساد. اندهش حينما نظر حول نفسه ورأى كيف يمكن أن يكون الوالدان المحبطان المخيبان للآمال - كما كان هو مع ابنيه اللذين استمرا يتصرفان كما لو أن ما حدث لهما لم يحدث أبداً من قبل أو حينئذ لأى شخص آخر - وبعد ذلك يكون لك طفل هو رقم واحد من جميع الأوجه. أحياناً، يبدو أن كل شىء كان غلطة فيما عدا "نانسى". لذلك فهو قلق بشأنها، ومازال حتى الآن لا يمر بمحل أزياء للنساء، بدون أن يفكر فيها ويبحث فيه عن شىء ما قد يستهويها، وفكر قائلاً، إننى محظوظ جداً، وفكر أنه كان ينبغى أن يأتى شيئاً جيداً فى مكان ما، وهو ما تحقق معها هى.

كان يتذكر الآن فترتها القصيرة كما لو كان يتعقب مسار أحد النجوم. فحينما كانت "نانسى" فى

الثالثة عشرة من عمرها جاءت فى أحد السباقات الثانية على كل بنات المدرسة، فى الركض لمسافة ميلين، ورأت إمكانية شىء ما تستطيع أن تكون فيه استثنائية. لقد كانت جيدة فى كل شىء آخر، لكن هذا نوع آخر من النجومية. ولفترة ما توقف عن السباحة فى النادى أول الأمر، ولذا استطاعا أن يركضا معاً فى الصباح الباكر وأحياناً، أيضاً، فى ساعات الغروب. سوف يذهبان إلى المنتزه وسوف يكونان هما فقط هناك والظلال والأنوار. كانت تجرى فى فريق المدرسة حينئذ، وخلال أحد اللقاءات كانت تنثنى عند أحد المنحنيات، حينما انهارت ساقها وسقطت على التراك وهى تشعر بألم شديد. ما حدث كان شيئاً ما يمكن أن يحدث لفتاة فى سن المراهقة المبكرة. نظراً لأن العظام لا تكون قد قويت وأصبحت صلدة فى مثل هذا العمر، وما يمكن أن يكون بالنسبة لامرأة تامة النمو مجرد إجهاد فى الوتر كان أكثر مأسوية عند "نانسى": فقطعة العظام التى يمسك بها الوتر فقط من أعلى الفخذ قد انخلعت. وأسرع هو ومدرب الركض بـ"نانسى" إلى غرفة الطوارئ بالمستشفى، بينما هى فى حالة من الألم والرعب الشديدين، وخصوصاً حينما سمعت أنه لا يوجد شىء يمكن فعله، على الرغم من أنه قيل لها فى الوقت نفسه، بصورة صحيحة إلى حد كافٍ، إن الإصابة ستشفى تلقائياً عبر فترة من الزمن. لكن كانت هذه النهاية لممارستها سباقات العدو، ليس فقط بسبب أن الشفاء

سيستغرق باقى الموسم، ولكن بسبب أن علامات البلوغ ظهرت عليها، وسرعان ما كبر ثدياها واتسع أعلى فخذيها، واختفت السرعة التى كانت تتسم بها حينما كان لها جسدها الطفولى. ثم حينئذ، وكأن نهاية منافسات البطولة، وتبدل بنيانها الجسمانى لم يكن كافياً لتترك مساراتها، ففى هذه السنة تماماً تلقت لطمة طلاق والديها.

حينما جلست على فراشه بالمستشفى وبكت بين ذراعيه، كان هذا لأسباب كثيرة، ليس أقلها تركه لها حينما كانت فى الثالثة عشرة. جاءت إلى الشاطئ لتساعده، وكل ما استطاعت ابنته الرزينة العاقلة أن تفعله هو أن تعيد إحياء الصعوبات التى نجمت عن الطلاق وتعترف بالخيال السرمدى للمصالحة الأبوية التى قضت أكثر من نصف حياتها تأمل فيها. قال بهدوء وهو يمسد ظهرها ويربت على شعرها ويهدهدها برفق من ذراعيها: "لكن لا شىء يعيد صنع الواقع، فقط خذى الأمر على ما هو عليه، تمسكى بواقعك واقبليه مثلما يأتى. لا يوجد سبيل آخر".

كانت هذه هى الحقيقة، وأفضل ما استطاع أن يفعله. وهو على وجه التحديد ما أخبرها به قبل سنوات كثيرة مضت، حينما أمسكها بين ذراعيه فى سيارة الأجرة عائداً للمنزل من غرفة الطوارئ، بينما هى تهتز فى نوبات من البكاء بسبب تقلب الأحداث الذى يتعذر تفسيره.

كل هذه الجراحات وعمليات دخول المستشفى قد جعلته تماماً أكثر وحدة، ورجلاً أقل ثقة مما كان عليه فى السنة الأولى من تقاعده. حتى سلامه وهدوئه المحببين بدا أنهما قد تحولا إلى شكل متولد ذاتياً عن العزلة الانفرادية، وكان مُطارداً بإحساس أنه كان متوجهاً صوب النهاية. لكن بدلاً من التراجع إلى مانهاتن المعرضة للهجوم، قرر أن يقاوم الشعور بالاغتراب الذى أتى به ضعفه الجسدى، وأن يدخل بحيوية أكثر إلى العالم المحيط به. وقد فعل هذا عن طريق تنظيم حصتين للرسم أسبوعياً للمقيمين فى القرية، فصل دراسى بعد الظهر للمبتدئين، وفصل مسائى لهؤلاء الذين اعتادوا بالفعل على الرسم.

كان هناك حوالى عشرة تلاميذ فى كل فصل، وأحبوا الاجتماع فى حجرة مرسمه المشرقة. وبشكل عام، كان تعلم الرسم هو الحجة والذريعة لتواجدهم هناك، وكان معظمهم يأخذون الفصل للغرض نفسه الذى يخصصه له: ليجدوا تواصلاً مُرضياً مع الأناس الآخرين. كانوا كلهم فيما عدا اثنين منهم أكبر منه، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتجمعون كل أسبوع فى جو من الابتهاج بالصحبة الطيبة، إلا أن المحادثات دائمًا ما كانت تتحول إلى مسائل المرض والصحة وسيرتهم الذاتية التى تصبح فى هذا الوقت متطابقة مع سيرتهم الذاتية الصحية، وتبادل البيانات الطبية التى تطغى تقريباً على كل شىء آخر. وفى هذا المرسم، يعرف الواحد منهم الآخر عن طيب خاطر من خلال

أمراضهم أكثر من رسوماتهم. "كيف حال السكر لديك؟". "كيف هو الضغط معك؟". "ما الذى قاله الطبيب؟". "هل سمعت عن جارى؟ لقد انتشر إلى الكبد". وأتى أحد الرجال إلى الفصل ومعه وحدة الأكسجين المحمولة الخاصة به". وآخر، لديه "باركنسون" الرعاش، لكنه كان شغوفاً بتعلم الرسم بأية طريقة. وكلهم بدون استثناء يشتكون ـ أحياناً بتفكه وأحياناً بدون ـ من تزايد فقدان الذاكرة، ويتحدثون كيف مرت سريعاً الشهور والفصول والسنون، وكيف أن الحياة لا تتحرك بالسرعة نفسها. وكانت هناك امرأتان تُعالجان من السرطان. اضطرت إحداهما أن تترك الكورس فى منتصف الطريق لتعود إلى المستشفى لتلقى العلاج. وامرأة أخرى كانت تعانى من آلام فى الظهر، وتضطر أحياناً أن تستلقى على الأرض على حافة الغرفة لعشر أو خمس عشرة دقيقة قبل أن تستطيع القيام لتستأنف العمل أمام حامل اللوحة. وبعد المرات القليلة الأولى، أخبرها أنها ينبغى أن تذهب بدلاً من ذلك إلى غرفة نومه وترقد الفترة التى تريدها فى سريره ـ حيث توجد عليه مرتبة ناعمة ودافئة وسوف تكون مستريحة أكثر. وبمجرد أنها لم تخرج من غرفة النوم لمدة نصف ساعة، طرق عليها، وحينما سمعها تبكى بالداخل، فتح الباب ودخل.

كانت امرأة نحيفة طويلة شعرها رمادى تقترب فى العمر منه بسنة أو سنتين، ذكّره مظهرها ورقتها

بـ"فايبى". اسمها "ميليسينت كرامر"، أفضل تلميذاته إلى حد بعيد وأقلهم فوضى بالمقارنة. وهى الوحيدة فيما يسميه بمشاعر العطاء "الرسم المتقدم" التى نجحت فى أن تنهى كل فصل بدون أن تسيل الألوان على حذائها الرياضى. فهو لم يسمعها أبداً تقول كما يفعل الآخرون، "لا أستطيع أن أرسم ما أريد أن أرسمه"، أو "أستطيع أن أرسم اللوحة فى ذهنى، لكنى لا يبدو أننى أستطيع أن أضعها على قماش اللوحة"، ولم يكن بحاجة أبداً لأن يخبرها، "لا تخافى لا تتراجعى". لقد حاول أن يكون كريماً معهم جميعاً، حتى مع اليائسين منهم، عادة هم على وجه التحديد هؤلاء الأفراد الذين جاءوا وقالوا فوراً: "قضيت يوماً عظيماً - أشعر أننى ملهماً اليوم". وفى النهاية بعد أن يسمع ما يكفى من هذا، يكرر لهم شيئاً ما يتذكر بغموض أن "تشوك كلوز"(*) قد قاله فى مقابلة: إن الهواة يبحثون عن الإلهام؛ أما الباقون منا فإنهم فقط يمضون فى العمل. لم يبدأ معهم بالرسم، لأن واحداً منهم بالكاد كان قادراً على الرسم، ويمكن أن يتسبب شكل واحد فى كل أنواع المشاكل للنسبة والمنظور، فمن ثَمَّ بدلاً من ذلك، بعد جلستين يستعرضون فيها المبادئ الأولية (كيف يخططون لوحاتهم وينظمون "بالتة" ألوانهم وهكذا) ويؤهلون أنفسهم للتآلف مع

(*) تشوك كلوز Chuck Close: رسام ومصور أمريكى مواليد ١٩٤٠، حقق شهرة كمصور واقعى، وعلى الرغم من إصابته بالشلل إلا أنه استمر يرسم وينتج أعمالا سعت إليها المتاحف وجامعو التحف الفنية.

الوسيط نفسه أو الأداة المستخدمة، فإنه يقيم حياة ساكنة على منضدة ـ مزهرية، بعض الزهور، ثمرة فاكهة، فنجان شاى ـ ويشجعهم على أن يستخدموها كنقطة مرجعية. وأخبرهم أن يكونوا مبدعين من أجل أن يسهلوا حركة أيديهم وأن يستخدموا الذراع كلها فى الرسم، إن أمكن، بدون خوف. وأخبرهم أنه لا ينبغى أن يقلقوا حول ما الذى سيشبهه بالفعل النسق النهائى: "فسره، فهذا عمل إبداعى". ولسوء الحظ، فإن قول هذا قاده أحياناً إلى أن يضطر أن يخبر شخصاً ما، "إنك تعرف أنه لا ينبغى أن تجعل المزهرية أكبر ست مرات من فنجان الشاى". "لكنك أخبرتنى أنه ينبغى أن أفسرها": هذا الرد المتكرر، يرد هو عليه بدوره بلطف قدر الاستطاعة: "إننى لم أقصد هذا القدر الكبير من التفسير". إن عذاب الفصل الفنى، الحد الأدنى الذى رغب فى التعامل معه، كان هو الرسم من تخيلاتهم؛ فى النهاية لأنهم كانوا متحمسين جداً فيما يتعلق بـ"الإبداع"، وفكرة أن تترك العنان لنفسك على هواها، فقد ظلت هذه هى الموضوعات المشتركة من جلسة إلى أخرى. وأحياناً كان يحدث الأسوأ ويقول الطالب: "أنا لا أريد أن أرسم زهوراً أو ثماراً، أنا أريد أن أرسم تجريداً مثل الذى تفعله". ومنذ أن عرف أنه لا توجد طريقة لمناقشة ما يفعله مبتدئ حينما يفعل ما يسميه تجريداً، فهو يخبر الطالب: "جميل، لماذا لا تفعل فقط ما تحب أن تفعله"، وحينما يتجول فى المرسم فى جولة عمل للتشجيع،

ربما يجد ـ كما هو مُتَوَقع ـ أنه بعد النظر على محاولة لرسم تجريدى، لم يكن لديه ما يقوله سوى "استمر فى العمل". لقد حاول أن يربط الرسم باللعب بدلاً من الفن، من خلال الاستشهاد بقول "بيكاسو" لهم، بضرورة أن يستعيدوا الطفل من أجل أن يرسموا مثل الكبار. وبشكل أساسى فإن ما فعله هو تكرار ما قد سمعه كطفل حينما بدأ يأخذ الفصول، وكان مدرسوه يخبرونه بالأشياء نفسها.

إنه مُطالب فقط أن يكون محدداً بشكل كلى حينما وقف إلى جانب "ميليسينت"، ورأى ما يمكن أن تفعله، وكيف تتحسن بسرعة كبيرة. استطاع أن يشعر على الفور أن لديها موهبة فطرية، وأنها تجاوزت إلى مدى بعيد الموهبة الصغيرة التى بدأ الآخرون فى إظهارها بمرور الأسابيع. لم تكن قضية بالنسبة لها أن تخلط الأحمر والأزرق فوراً فى لوحة الألوان، لكن بدلاً من ذلك تعديل الخليط بقليل من الأسود، أو بمجرد مسحة من الأزرق حتى تكون الألوان متجانسة بشكل مثير، وتضفى التماسك على الرسومات بدلاً من التبعثر فى كل مكان، وهو ما يقابله فى كثير من الأوقات حينما يتنقل فيما بين حوامل اللوحات، مفتقداً لأى شىء آخر يمكن أن يفكر فيه، فسمع نفسه يقول: "هذا يأتى سريعاً بشكل طيب". واحتاجت "ميليسينت" إلى تذكيرها "لا تجهديها"، لكن من ناحية أخرى، فلا شىء قد اقترحه ذهب هباءً بالنسبة لها، وأنها سوف تنظر على أخفت ظلال للمعنى فى أى

شيء أخبرها به. بدا أن طريقتها في الرسم تنبثق مباشرة من موهبتها الغريزية، وإذا كانت رسوماتها لا تشبه رسومات أى أحد آخر فى الفصل، فلم يكن تفردها لتميز أسلوبها، لكن بسبب الطريقة التى كانت تشعر بها بالأشياء وتدركها. أما الآخرون فقد تباينوا فى احتياجاتهم؛ على الرغم من أن الفصل مفعم بالكامل بالنيات الطيبة، فالبعض مازال يستاء حينما يحتاج إلى المساعدة مطلقاً، حتى أنه يمكن للنقد غير المتعمد أن يجعل أحد الرجال، مدير تنفيذى سابق فى شركة صناعية، شديد الحساسية إلى حد الهلع. لكن لم تكن "ميليسينت" أبداً: فهى أكثر تلميذة تكافئ المدرس من بين كل التلاميذ الهواة فى فصل الرسم.

جلس الآن بجوار فراشها، وأخذ يدها فى يده، يفكر: حينما تكون شاباً، فإن الجسد الخارجى هو ما يهم، كيف تبدو خارجياً. وحينما تكبر، يتركز الاهتمام على ما هو بالداخل، ويتوقف الناس عن الاهتمام بالكيفية التى تبدو عليها.

سألها: "هل لديك دواء ما يمكن أن تأخذيه؟".

قالت: "أخذته، لا أستطيع أن آخذ المزيد منه. إنه لا يفيد سوى لبضع ساعات على أية حال. لا شيء يجدى. لقد أجريت ثلاث عمليات. كل عملية أكبر من التى سبقتها وأكثر تعذيباً منها، وكل عملية تجعل الألم أشد قسوة. أنا آسفة لكونى فى مثل هذه الحالة، وأعتذر عن ذلك".

بالقرب من رأسها على السرير كانت توجد حمالة تثبيت الظهر، أزالتها لكى تستلقى. كانت تتكون من غلاف بلاستيك أبيض يناسب الجزء الأسفل من العمود الفقرى، ويتصل بنسيج من قماش مطاطى وسيور بمشابك لتثبيته بسهولة فوق البطن بقطعة مستطيلة من القماش المبطن باللباد. وعلى الرغم من أنها كانت مازالت تضع سترة الرسم البيضاء، إلا أنها قد أزالت الحمالة، وحاولت أن تدفعها بعيداً عن النظر أسفل الوسادة حينما فتح الباب ودخل، وهذا هو السبب فى أنها كانت أعلى إلى جانب رأسها، ومن المستحيل ألا يكون قد تنبه لها طوال الوقت بينما هما يتحدثان. لقد كانت مجرد نوع من حمالة الظهر، تُلبس تحت الملابس الخارجية، ولا يزيد ارتفاع الجزء الخلفى البلاستيك عن ثمانى أو تسع بوصات، ومع ذلك فهى حدثته عن المودة الدائمة فى قرية التقاعد العامرة بالمرض والموت.

سألها: "هل تريدين كوباً من الماء؟".

استطاع أن يرى بالنظر إلى عينيها مدى صعوبة الألم الذى تعانى منه. قالت بضعف: "نعم، نعم أرجوك".

كان زوجها، "جيرالد كرامر"، مالك وناشر ومحرر الصحيفة المحلية الأسبوعية الرائدة فى المقاطعة التى لم تتوان عن كشف الفساد فى الحكومة المحلية من أعلى الشاطئ إلى أسفله. وتذكر "كرامر" الذى نشأ طفلاً فقيراً بالقرب من "نبتون"، وكرجل مكتنز، أصلع،

عنيد، فهو يمشى بقدر كبير من الخيلاء والاعتزاز، لعب التنس بشكل عدوانى وبدون براعة أو سهارة، امتلك شركة طيران صغيرة، وأدار مجموعة نقاش مرة كل أسبوع حول الأحداث الجارية ـ الحدث الأبرز فى المساء فى قائمة "ستارفيتش بيتش" مع عرض نخبة من الأفلام القديمة فى جمعية الفيلم ـ حتى أُصيب بسرطان فى المخ وكان يُشاهد وزوجته تدفع به على كرسى المقعدين حول شوارع القرية. وحتى فى التقاعد استمر يأخذ مظهر القادر على كل شىء، لكونه قد كرس حياته كلها لمهمة على قدر كبير من الأهمية، ولكن فى هذه الأشهر الأحد عشر التى سبقت وفاته، بدا مأخوذاً شارداً مذهولاً باقتراب تلاشيه، مذهولاً من عجزه، مذهولاً يفكر فى أن الرجل الذى يقترب من الموت، الواهن على كرسى المقعدين لم يعد قادراً على أن يضرب كرة التنس، أن يبحر فى قارب، أن يطير بطائرة، ناهيك عن أن يحرر صفحة واحدة من "صوت مقاطعة مونموث" ـ لا يستطيع أن يرد على اسمه. كانت إحدى غرائبه المنفلتة أن يرتدى، بدون سبب خاص من وقت إلى آخر، بذلة سهرة سوداء ليتناول شرائح لحم عجالى سكالوبانيه فى مطعم القرية مع زوجته التى تخطت الخمسين. "أين هو الجحيم الآخر الذى سوف ارتديها فيه؟"، كان ذلك هو التفسير المهذب الذى يخرج إليهم كلهم ـ واستطاع أحياناً أن يتودد إلى الناس بعذوبة غير متوقعة. لكن زوجته اضطرت بعد الجراحة أن تبقى إلى جواره،

وتنتظره أن يفتح فمه بميل ومن ثمَّ تغذيه بحذر شديد، الزوج المتعجرف النبيل الفظ، بملعقة. لقد عرف أناس كثيرون "كرامر" وأعجبوا به، وفى الشارع فى الخارج أرادوا أن يحيوه ويسألوه عن صحته، لكن غالباً كانت زوجته تهز رأسها لتحذرهم حينما يكون فى غياهب كآبته - الكآبة المريرة لشخص كان من المؤكد فى وقت ما فى منتصف كل شىء والآن هو فى منتصف لا شىء. كان هو نفسه الآن لا شىء، لا شىء سوى صفر عاجز ينتظر غاضباً بركة إبادة كانت مطلقة.

قال لـ"ميليسينت كرامر" بعد أن شربت بعضاً من الماء: "بمقدورك أن تستمرى فى الاستلقاء هنا إذا أحببت".

فصرخت: "لا أستطيع أن أرقد طوال الوقت! لن أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك! لقد كنت خفيفة الحركة، كنت فى غاية النشاط - فإذا كنت زوجة "جيرالد" يتعين علىّ أن أكون كذلك. لقد ذهبنا إلى كل مكان. شعرت بالحرية المطلقة. ذهبنا إلى الصين، تجولنا فى كل إفريقيا - الآن، أنا لا أستطيع أن أستقل الحافلة إلى نيويورك، ما لم أتنفس من خياشيم المسكنات. وأنا لست على ما يرام مع المسكنات - فهى تجعلنى مهووسة تماماً - وبمرور الوقت أصل إلى هناك إننى فى حالة ألم بأية طريقة. أوه، أنا آسفةعلى ذلك. أنا آسفة من أعماقى. كل شخص هنا لديه محنته. لا

يوجد شىء خاص فيما يتعلق بقصتى، وأنا آسفة لأننى حملتك عبئها. فربما كانت لديك مشاغل خاصة بك".

سأل: "هل يمكن أن تساعدك وسادة التدفئة؟".

قالت: "أتعرف ما الذى يمكن أن يساعد؟ رجع الصوت الذى اختفى. صوت الرجل الرائع الذى أحببته. لكن لا أستطيع بدونه. لم أره ضعيفاً مرة فى حياته - ثم أتى السرطان وسحقه. أنا لست "جيرالد". هو سوف يستجمع فقط كل قواه ويفعلها - يستجمع كل شىء لديه ويفعل أى شىء ينبغى فعله. لكننى لا أستطيع. لا أستطيع تحمل المزيد من الألم. إنه يطغى على كل شىء. أحياناً أظن أننى لن أستطيع أن أستمر لساعة أخرى. أخبر نفسى بتجاهله. أقول لنفسى إنه غير مهم. أقول لنفسى لا تنشغلى به. إنه وهم. إنه نوع من الإزعاج، ولا شىء أكثر من هذا. لا تقرى له بالقوة. لا تتعاونى معه. لا تلتقطى الطُعم. لا تردى. شُقى الطريق عنوة. انطلقى بسرعة. إما أن تقبضى عليه أو يقبض عليك - الاختيار لك! وأكرر هذا لنفسى مليون مرة فى اليوم، كما لو أننى "جيرالد" يتحدث، ثم فجأة يكون مفزعاً للغاية أن أضطر إلى أن أرقد على الأرض فى وسط السوبر ماركت، وتصبح كل الكلمات لا معنى لها. أوه، أنا آسفة، بصدق. أنا أمقت الدموع".

أخبرها: "إننا كلنا نمقتها، لكننا نبكى على أية حال".

قالت: "هذا الفصل يعنى لى الكثير جداً، فأنا أقضى الأسبوع كله أنتظره"، واعترفت: "أنا مثل طفلة فى المدرسة بالنسبة لهذا الفصل"، ووجدها تنظر إليه بثقة طفولية، كما لو كانت بالفعل طفلة صغيرة يهدهدها لتنام ـ وأنه مثل "جيرالد" يستطيع تماماً فعل أى شىء.

سألها: "هل لديك أى من أدويتك معك؟".

"لقد تناولت بالفعل واحداً هذا الصباح".

أخبرها: "لتأخذيه مرة أخرى".

"ينبغى أن أكون حريصة مع هذه الأقراص".

"أفهم. لكن لتعملى معروفاً لنفسك وخذى قرصاً آخر الآن. فلا يمكن لقرص آخر أن يكون له ضرر كبير، سيجعلك تجتازين النوبة. سيجعلك ترجعين إلى حامل اللوحة".

"إنه يستغرق ساعة ليؤتى مفعوله. سيكون وقت الفصل قد انتهى".

"مرحباً بك لتبقى وتواصلى الرسم بعد أن يذهب الآخرون. أين الدواء؟".

"فى حقيبة يدى. فى المرسم. إلى جانب حامل اللوحة. الحقيبة بنية اللون قديمة بحزام كتف مهترئ".

وأحضرها لها، ومع ما تبقى من الماء فى الكوب، تناولت القرص، مخدر يقتل الألم لثلاث أو أربع

ساعات، قرص على شكل مُعَيَّن أبيض كبير، تسبب فى أن تسترخى مع توقع الراحة فى اللحظة التى ابتلعته فيها. وللمرة الأولى منذ أن بدأت الفصل استطاع أن يرى بوضوح كيف ولابد أنها كانت جذابة قبل أن ينغص حياتها تفسخ العمود الفقرى الذى شاخ.

قال: "ارقدى هنا حتى يبدأ مفعوله، ثم الحقى بالفصل".

قالت وهو يغادر: "أعتذر بالفعل عن كل هذا، فقط إنه هذا الألم يجعلك وحيداً جداً". وهنا غادرتها الشجاعة مرة أخرى وتركتها تبكى ما بين يديها. "إنه أمر مخجل جداً".

"لا يوجد ما يُخجل فى ذلك".

بكت: "يوجد، يوجد، كونك لا تستطيع أن تعتنى بنفسك، الحاجة المحزنة لأن تستريح...".

"فى كل الأحوال، لا شىء من هذا مخجل نهائياً".

"أنت مخطئ. أنت لا تعرف. الاعتماد، اليأس، العزلة، الفزع - كل هذا مروع ومخجل. الألم يجعلك مرعوباً من نفسك. إن الاختلاف المطلق له مُرعِب".

فكر فى أنها مرتبكة مما صارت إليه، مرتبكة، خجلى، مهزومة غالباً فيما وراء اعترافها الشخصى. لكن أياً منهم لم يكن هكذا؟

كان كلاهما مرتبكاً مما سوف يصيران إليه. ألم يكن هو كذلك؟ من خلال التغيرات الفيزيائية. من

خلال نضوب الذكورة. من خلال الأخطاء التى جعلته يتلوى والضربات - كل من الضربات الذاتية وغير الذاتية - التى شوهته. إن ما أضفى النبل المروع لعملية الانتقاص التى عانت منها "ميليسينت كرامر" - والمصغرة بالمقارنة مع الكآبة الخاصة به - كان بالطبع هو الألم العنيد. وتأمل، فحتى هذه الصور للأحفاد، هذه الصور للأجداد فى شتى أرجاء المنزل، ربما هى لن تنظر حتى عليه مرة أخرى. لا مزيد من شىء سوى الألم.

قال: "هسسسس، هسسسس، اهدئى"، وعاد إلى الفراش للحظة ليأخذ بيدها مرة أخرى قبل أن يعود إلى الفصل. "انتظرى حتى يعمل المسكن وارجعى حينما تكونين مستعدة للرسم".

بعد عشرة أيام قتلت نفسها بجرعة زائدة من الأقراص المنومة.

وفى نهاية الدورة التى استغرقت اثنى عشر أسبوعاً بالفعل، أراد كل فرد أن يوقع طلباً لعقد دورة ثانية، لكنه أعلن أن هناك تغييراً فى المخطط ربما يجعل من غير الممكن له أن يستأنف الكورسات حتى الخريف التالى.

حينما هرب من نيويورك، اختار الشاطئ كوطن جديد له، لأنه قد أحب دائماً السباحة على الشاطئ ومصارعة الأمواج، وبسبب صداقات الطفولة السعيدة التى كانت له على امتداد شاطئ "جيرسى"، وبسبب أنه حتى لو لم تلحق به "نانسى" فسوف يكون على مسافة مجرد ساعة بعيداً عنها، ولأن العيش فى جو هادئ ومريح كان مرتبطاً بأنه مفيد لصحته. لم تكن هناك امرأة فى حياته عدا ابنته. وهى لم تتخلف أبداً عن محادثته كل صباح قبل مغادرتها للعمل، لكن فيما عدا ذلك نادراً ما يرن جرس تليفونه. إن العاطفة تجاه الابنين من زواجه الأول لم يعد يسعى وراءها؛ فهو لم يعمل أبداً على التغذية العاطفية للعلاقة أبداً بصورة صحيحة من خلال أمهما، أو من خلالهما، ومن أجل أن يقاوم التكرار الزائد لهذه الاتهامات ومن أجل مقاومة نسخة ابنيه من تاريخ العائلة، سوف يستلزم استنفار ميله إلى المعارك الذى نفد من مستودعه. إن الميل للمعارك قد حل مكانه حزن عميق. فإذا انقاد فى وحدة لياليه الطويلة لإغراء أن

يتصل بأحدهم أو الآخر، كان يشعر دائماً بالحزن فيما بعد، يشعر بالحزن والقهر.

كان "راندى" و"لونى" هما مصدر أعمق عقدة ذنب عنده، لكنه لم يستطع أن يستمر فى تفسير سلوكه لهما. لقد حاول غالباً بما يكفى حينما كانا شابين صغيرين - لكنهما كانا حينئذ صغيرين وغاضبين بدرجة يصعب معها أن يفهما. وماذا كان هناك ليفهماه؟ لقد كان الأمر غير مفسر بالنسبة له - الإثارة التى يمكن أن يصرا بجدية على أن يستمداها من شجبه واتهامه. لقد فعل ما فعله بالطريقة التى فعلها كما فعلوا ما فعلوه بالطريقة التى فعلوها. هل كان موقفهما الثابت فى عدم التسامح يمكن التسامح معه؟ أو أقل ضرراً فى تأثيره؟ كان واحداً من ملايين الأمريكيين الذين كانوا منفصلين بالطلاق الذى يفتت العائلات. لكن هل هو ضرب أمهما؟ هل هو ضربهما؟ هل تخلى عن دعم أمهما أو تخلف عن إعالتهما؟ هل طلب أى منهما أبداً منه نقوداً؟ هل كان فى مرة من المرات قاسياً معهما؟ ألم يفعل ما يقدر عليه فى المبادرة بالتواصل معهما؟ ما الذى كان يمكن تجنبه؟ ما الذى كان بمقدوره أن يفعله بشكل مختلف حتى يصير أكثر قبولاً لديهما غير ما لم يقدر على فعله، وهو أن يظل متزوجاً أمهما ويعيش معها؟ سواء فهما هذا أو لم يفهماه - والأمر الحزين بالنسبة له (وبالنسبة لهما) أنهما لم يفهما. ولا هما استطاعا أبداً أن يفهما أنه قد فقد العائلة نفسها التى فقداها. ولا شك أن هناك

أشياءً مازال غير قادر على فهمها. وإذا كان الأمر هكذا، فهو أكثر مدعاة للحزن. لا أحد بمقدوره أن يقول إنه لم يكن هناك ما يكفى من الحزن المتفشى أو ما يكفى من الندم الذى يستحث أسئلة متنوعة تلك التى حاول بها أن يدافع عن قصة حياته.

هو لم يخبرهما شيئاً عن مسلسل دخوله إلى المستشفى خوفاً من أن يبعث هذا فيهما الكثير جداً من التشفى ويروى غليلهما. وكان متأكداً أنه حينما يموت سوف يبتهجان، وكل هذا بسبب تلك الذكريات الأولى التى لم تبارحهما عن تركه عائلته الأولى ليبدأ فى عائلة ثانية. وفى النهاية غدر بعائلته الثانية من أجل مرءوسته الجميلة التى تبلغ من العمر ستًّا وعشرين سنة، وهى وفقاً لـ"راندى" و"لونى"، أن أى شخص غير والدهما يمكن أن يرى أنها "حمقاء" من على بعد ميل - فهى نموذج، ليس أقل من ذلك، "نموذج غبى"، كان قد قابلها حينما كانت تخدم فى وظيفة فى الوكالة التى تعاقدت لنقل الطاقم بالكامل، بما فيهم هما الاثنان، إلى البحر الكاريبى لعمل يستغرق بضعة أيام - وهى قد عززت فقط وجهة نظرهم فيه كمخادع، يفتقر الشعور بالمسئولية، مغامر جنسى طائش غير ناضج. وكأب فقد كان محتالاً. وكزوج، حتى مع "فايبى" التى لا تُضاهى والتى ألقى على كاهلها مهام أمهما، كان دجالاً. وكذلك كان مزيفاً فى كل شىء فيما عدا أنه جائع للجنس تماماً. وفيما يتعلق بتحوله إلى "فنان" فى شيخوخته، كان هذا التحول بالنسبة

إلى ولديه النكتة الكبرى على الإطلاق. ففى وقت من الأوقات واظب على الرسم بجدية كل يوم، فكان اللقب الساخر الذى اخترعه "راندى" لأبيهما هو "الإسكافى السعيد".

وفى المقابل، هو لم يدَّع الاستقامة الأخلاقية أو الرأى السديد. وأسس زواجه الثالث على رغبة عارمة فى امرأة لم يكن له شأن بها، لكنها رغبة لم تفقد أبداً قدرتها على أن تعميه وتقوده فى الخمسين إلى أن يمارس لعبة الشباب. فهو لم ينفصل عن "فايبى" طوال السنوات الست السابقة، إلا أنه لم يستطع أن يقدم هذه الحقيقة الشخصية جداً عن حياتهما كتفسير لولديه لطلاقه الثانى. إنه لم يظن أن سجله كزوج لـ"فايبى" لمدة خمس عشرة سنة، وكوالد لـ"نانسى" التى تعيش فى كنفه لمدة ثلاثة عشر عاماً، وكأخ لـ"هواى" وابن لوالديه منذ الميلاد، يتطلب منه أن يقدم مثل هذا التفسير. وهو لم يظن أن سجله كرجل إعلانات لما يزيد عن عشرين عاماً يفرض عليه أن يقدم مثل هذا التفسير. هو لم يظن أن سجله كأب لـ"لونى" و"راندى" يتطلب مثل هذا التفسير! .

إلا أن وصفهما للكيفية التى تدبر بها أمر نفسه على مر حياته.لم تكن حتى صورة كاريكاتورية، ولكن ـ فى تقديره ـ هى تصوير لما لم يكنه، ووصف أصرا معه على تصغير قيمة كل شىء كان يعتقد هو أنه ظاهر لمعظم الآخرين. تقليص مآثره ثم تضخيم عيوبه، وبسبب هذا لم يتمكن بالتأكيد من أن يستمر فى

تحمل وطأة مثل هذه الضغوط الهائلة فى هذا العمر المتقدم. وحتى الأربعينات من عمرهما ظلا مع أبيهما الطفلين اللذين عادا حينما ترك أمهما أولاً، الطفلين اللذين بطبيعتيهما لا يفهمان أنه ربما يوجد أكثر من تفسير للسلوك الإنسانى. على أية حال كان لهما مظهر طفلين وعدوانية رجلين، عدوانية لم يستطع أبداً إزاء تدميرها أن يعزز دفاعاً قوياً. اختارا أن يصطنعا المعاناة بسبب الأب الغائب، وكذلك فعل هو، مستثمراً إياهما مع تلك القوة. فالمعاناة من إثمه كانت هى كل ما استطاع أن يفعله أبداً ليسرهما، ليدفع حسابه، أن يتساهل مثل أفضل الآباء مع معارضتهما الجنونية.

أنتما يا أولاد الزنا الملعونان! أنتما أيها الداعران العابثان! أيها القذران الصغيران الملوثان! سأل نفسه، هل كل شىء كان سيختلف إذا كنت مختلفاً وفعلت الأشياء بصورة مختلفة؟ هل سيكون الأمر أقل وحدة مما هو عليه الآن؟ بالطبع ربما يكون! لكن هذا ما قد فعلته! أنا واحد وسبعون عاماً. هذا هو الرجل الذى صنعته. هذا ما فعلته لأصبح هنا، ولا يوجد شىء أزيد من هذا يمكن أن يُقال!.

وعلى مر السنين، لحسن الحظ، كان "هواى" على اتصال معه. ففى أواخر الخمسينات من عمره، تقاعد "هواى" مثل كل الشركاء تقريباً الذين وصلوا إلى هذا العمر فيما عدا الثلاثة أو الأربعة على قمة العمل فى بنك "جولدمان ساكس"؛ فى ذلك الحين كانت ثروته

تصل بسهولة إلى خمسين مليون دولار. وسرعان ما تقلد مناصب فى مجالس إدارات مؤسسات كثيرة، ليتولى فى النهاية منصب رئيس مجلس إدارة "بروكتر وجامبل"(*)، الذين قام لهم بدور الوسيط فى الأيام الخوالى. وفى السبعينات من عمره، مازال مفعماً بالحيوية وشغوفاً بالعمل، لقد صار مستشاراً لمشروع بوستون لشراء الحصص والأسهم المتخصص فى مؤسسات التمويل. إلا أنه على الرغم من المسئوليات المستمرة والمتطلبات التى يفرضها وقت "هواى"، فإن الأخوين تبادلا المكالمات التليفونية مرتين فى الشهر، مكالمات يمكن أن تستمر أحياناً لمدة نصف ساعة، يضحك أحدهما مسلياً الآخر بذكريات سنوات الصبا واللحظات المرحة فى أيام المدرسة وفى محل الجواهر.

والآن، وعلى الرغم من أنهما أحياناً يتكلمان، إلا أن بروداً غير مبرر يحل عليه ويرد على مرح أخيه بالصمت. لقد كان السبب مضحكاً. لقد كره "هواى" بسبب صحته الجيدة القوية. فهو قد كره "هواى" لأنه لم يكن أبداً فى حياته مريضاً نزيلاً فى مستشفى، لأن المرض لم يكن معروفاً لديه، لأنه لم يكن على أى مكان فى جسده آثار ندوب جرح من مبضع الجراحة، ولا كانت هناك ست دعامات معدنية غُرِست فى شرايينه مع جهاز تنبيه القلب مدسوساً فى جدار صدره والذى يسمى "منظم كهرباء القلب"، وهو الاسم الذى لم يكن

(*) Procter & Gamble: شركة صابون تأسست فى ولاية أوهايو.

مألوفاً لديه حينما سمعه يُنطق لأول مرة من طبيب القلب، ولم يكن تأثيره مؤذياً بقدر كبير، كما لو أن لديه شيئاً ما ينظم تروس الحركة فى دراجة. لقد مقته لأنه بالرغم من أنهما كانا طفلين للأبوين نفسيهما وكانا متشابهين إلى حد كبير فى الشكل، إلا أن "هواى" ورث المناعة الجسمانية وهو ضعف القلب والشرايين. لقد كان من المضحك أن يكرهه، لأنه لم يكن بمقدور "هواى" أن يفعل شيئاً فيما يتعلق بصحته الجيدة سوى أن يتمتع بها. كان من السخافة أن يكره "هواى" من أجل لا شىء سوى أنه وُلد نفسه وليس شخصاً آخر. فهو لم يحسده أبداً من أجل براعته الرياضية أو الأكاديمية، لم يحسده من أجل قدراته المالية وثروته، لم يحسده أبداً حتى حينما فكر فى ابنيه وزوجاته، ثم فى أبناء "هواى" - أربعة أولاد ناضجون استمروا يحبونه، وزوجة مخلصة، خمسون سنة والتى من الواضح أهميتها بالنسبة له كما هو بالنسبة لها. لقد كان فخوراً بالأخ مفتول العضلات الرياضى الذى نادراً ما حصل على درجة أقل من درجة A فى المدرسة، معجباً به منذ الطفولة المبكرة. هو نفسه الأصغر صاحب الموهبة الفنية الذى كانت مهارته البدنية الوحيدة المستحقة هى السباحة، فقد أحب "هواى" بدون مواربة، وتبعه فى كل مكان. لكنه الآن يكرهه ويحسده ويحمل له غيرة مسممة، وتتصاعد أفكاره كلها فى غضب ضده فقط بسبب القوة التى واتت "هواى" لأن يتصور حياة لا يعترضها عائق. وعلى الرغم من أنه أخفى على قدر

استطاعته ـ كل شىء شعر به غير عقلانى يتعذر تبريره، وبمرور الشهور أخذت مكالماتهما تستغرق وقتاً أقل، وتزداد الفواصل بين تكرارها، وسرعان ما توقفا تماماً عن الحديث.

لم يحتفظ لفترة طويلة بالرغبة الشريرة فى أن يفقد أخوه صحته . فهو لم يستطع أن يمضى إلى هذا الحد كحاسد، نظراً لأن فقدان أخيه لصحته لن ينجم عنه استعادته لصحته. لا شىء يمكنه أن يستعيد صحته، أو شبابه، أو يستثير موهبته. ومع ذلك، يستطيع غالباً وهو فى هذه الحالة من السعار أن يصل إلى نقطة يصدق فيها أن صحة "هواى" الجيدة كانت هى المسئولة عن حالته الصحية المتراجعة، حتى لو كان يعرف جيداً، حتى لو كان لديه الفهم المتسامح كشخص متحضر للغز الظلم وسوء الحظ. وبالعودة إلى الوقت الذى شخص فيه المحلل النفسى بعفوية أعراض الالتهاب الشديد فى الزائدة الدودية على أنه حالة من الحسد، كان لا يزال الابن المدلل لوالديه ولم تنتبه المشاعر التى تأتى مع الاعتقاد بأنه من الأفضل أن يكون ما يمتلكه الآخر هو ملك لك. لكنه قد عرف؛ اكتشف فى شيخوخته الحالة العاطفية التى تتملك المحسود من هدوء وصفاء، والأسوأ واقعيته . لقد كره "هواى" بسبب الهبة البيولوجية التى تمتع بها والتى كان يجب أن تكون له بالمثل.

فجأة لم يستطع أن يتحمل أخاه بطريقته البدائية الفطرية التى لم يستطع ابناه أن يتحملاها منه.

لقد كان يأمل أن تكون هناك امرأة فى فصول الرسم يمكن أن يهتم بها - كان هذا نصف السبب لتدريسه هذه الفصول. لكن الارتباط مع إحدى الأرامل من سنه والتى لم يشعر بالجاذبية تجاهها أثبت أنه غير مجد، على الرغم من النساء الشابات الصحيحات القويات اللواتى رآهن يهرولن على طول ممشى الشاطئ عندما يمارس تمشية الصباح، ومازال شعرهن مموجاً ولامعاً، ويبدين فى نظره أكثر جمالاً مما كانت نظيراتهن فى زمن سابق، ولم يفتقرن للفطنة ليبادلنه أى شىء غير الابتسامة البريئة الرسمية. وبعد تقدمهن السريع فى الاستجابة لنظراته كانت المتعة، لكنها متعة صعبة، وفى قاع الرغبة العقلية كانت مصدراً للحزن الحاد الذى يكثف فقط الوحدة غير المحتملة. صحيح أنه اختار أن يعيش فى وحدة لكن ليس فى وحدة غير محتملة. والأسوأ من أن تكون فى وحدة غير محتملة هو أنه يتحتم عليك أن تتحملها - إما هذا أو إنك تغرق. أنت تحتاج إلى العمل الشاق لمنع عقلك من أن يُخرِبك بنظرته الجائعة على الماضى وفيضه الغزير.

أصبح ضجراً بلوحاته. لقد حلم لسنوات كثيرة بامتداد لا ينقطع من الزمن، ذلك الذى سيوفره له تقاعده ليرسم - كما فعل آلاف وآلاف من مصممى الإعلانات الذين يتكسبون أيضاً من عملهم فى وكالات الإعلان. لكن بعد أن ظل يرسم تقريباً كل يوم منذ انتقاله إلى الشاطئ، فقد الاهتمام بما كان يفعله. إن

الحاجة العاجلة للرسم قد خلفت المشروع المصمم لكى يملأ الباقى من حياته المثقلة بالخيبات. لم يعد لديه المزيد من الأفكار. فكل لوحة أنجزها جاءت تشبه اللوحة التى سبقتها. كانت لوحاته التجريدية ذات الألوان المبهجة تُعرض باستمرار فى معرض "ستارفيتش بيتش" للفنانين المحليين، وبيعت اللوحات الثلاث التى أُخذت من معرض فى مدينة سياحية بجوار الساحل، بيعت كلها لأفضل زبائن المعرض. لكن هذا كان منذ سنتين تقريباً. الآن ليس لديه ما يعرضه. انتهت كلها إلى لا شىء. وبالنسبة له كرسام كان وربما دائماً ليس أكثر من "الإسكافى السعيد" الذى تصادف أن عرف أنه اللقب الذى أطلقه عليه الابن الساخر. كما لو كان الرسم تعويذة لطرد الأرواح الشريرة. لكن ما الأذى المصمم لاستئصاله؟ أقدم الأوهام فى النفس؟ أم إنه أسرع إلى الرسم ليحاول أن ينقذ نفسه من المعرفة التى يولد المرء ليعيش ويموت بدلاً منها؟ فجأة ضاع فى لا شىء، فى صوت من مقطعين "لا شىء"، مقطعين لا أكثر، السقوط فى العدم، الضياع والانجراف، وبدأ الفزع يتسرب إلى الداخل ويتغلغل. فكر، لا شىء يأتى دون مخاطرة، لا شىء، لا شىء. لا يوجد شىء ليس له نتائج عكسية، ولا حتى رسم اللوحات الغبية!.

شرح لـ"نانسى"، حينما سألت عن عمله، أنه كان لديه "عقم جمالى يستحيل إصلاحه".

"شىء ما سوف يبدأ معك ثانية"، هكذا قالت، وهى تقابل اللغة الموغلة بضحكة متسامحة. كانت فى

دماثتها متشبعة بطابع أمها، فهى لا تستطيع أن تنأى بنفسها عن احتياج الآخر، ولا تستطيع إلا أن تعبر عن المشاعر والعواطف الإنسانية التى استخف بها هو وألقاها وراء ظهره على نحو مشئوم. ألقى بها بدون أن يتحقق من أنه سيقدر بالتالى أن يعيش بدونها.

كان يقول لابنته: "لا أظن أن شيئاً سيبدأ، فهناك سبب لأننى لم أكن أبداً رساماً. لقد كنت أركض فى الاتجاه العكسى تماماً".

شرحت "نانسى": "السبب فى أنك لم تكن رساماً هو أنه كانت لديك زوجات وأطفال. استغرقت شهوراً لتطعمهم. كانت لديك مسئوليات".

"السبب فى أننى لم أكن رساماً هو أننى لست رساماً. ليس حينئذ وليس الآن".

"أوه، يا أبى ـ".

"لا، أنصتى إلىَّ. كل ما أفعله هو أننى أخربش خارج الزمن".

"أنت فقط مضطرب تماماً الآن. لا تُهن نفسك ـ ليس الأمر كذلك. أنا أعرف أنه ليس كذلك. فأنا أضع لوحاتك فى كل أنحاء الشقة. وأنظر إليها كل يوم، وأستطيع أن أطمئنك على أننى لا أنظر على خربشات. ويأتى الناس ـ إنهم ينظرون عليها. يسألوننى من هذا الفنان. يهتمون بها. إنهم يسألون ما إذا كان الفنان على قيد الحياة".

"وماذا تقولين لهم؟".

"استمع إلىَّ الآن: إنهم لا يتفاعلون مع خربشات. إنهم يستجيبون لعمل. أن تعمل هذا جميل. وبالطبع.."، والآن بهذه الضحكة التى تركته يشعر كأنه اغتسل، وها هو فى السبعين مفتون بابنته الطفلة مرة أخرى وهى تقول، "... بالطبع أخبرتهم أنك على قيد الحياة، أخبرتهم أن أبى هو الذى رسم هذه، وأنا فخورة جداً أن أقول هذا".

"حسناً ياحبيبتى".

"أنا عندى معرض صغير مقام هنا".

"هذا جميل. إنه يشعرنى بالتحسن".

"أنت فقط محبط الآن. فقط الأمر بهذه البساطة. فأنت فنان رائع. أنا أعرف ما الذى أقوله. إذا كان هناك أى شخص فى هذا العالم مؤهل لأن يعرف ما إذا كنت رساماً رائعاً أم لا، يكون أنا".

بعد كل ما سببه لها من خلال الغدر بـ"فايبى"، مازالت تريد أن تُشيد به. منذ كانت فى العاشرة من عمرها وهى هكذا - فتاة نقية وحساسة، لا يعيبها سوى كرمها وعطائها الزائد، بدون أن تسبب أذىً، تُخفى التعاسة بأن تشطب على أخطاء كل شخص عزيز عليها، عن طريق المزيد من الحب. أكوام من التسامح كما لو كانت أكوامًا كثيرة من القش. وحتماً أصابها الأذى حينما أخفت عن نفسها القليل من الكثير جداً مما كان مطلوباً فى "مكياج" الطفلة الباكية الصغيرة المتألقة المتباهية التى سقطت من أجلها وتزوجت.

"وليس أنا فقط يا أبى. إنه كل شخص يأتى. كنت أجرى مقابلات مع جليسات أطفال فى يوم آخر، لأن "موللى" لم تقدر على المواظبة. كنت أجرى مقابلات من أجل جليسة أطفال جديدة، وجاءت "تانيا" تلك الفتاة الرائعة التى انتهيت إلى توظيفها، ـ تلميذة تتطلع إلى كسب المزيد من النقود، إنها خريجة "مدرسة الفنون الجميلة" مثلك ـ لم تستطع أن ترفع عينيها عن الشخص الذى كان لدىَّ فى غرفة الطعام فوق "البوفيه"، الأصفر ـ أتعرف الشخص الذى أقصده؟".

"نعم".

"لم تستطع أن ترفع عينيها عنه. الشخص الأصفر والأسود. كان بالفعل شيئاً حقيقياً تماماً. كنت أسألها هذه الأسئلة، وكانت تركز على ما فوق البوفيه، سألت متى رُسِمت ومن أين اشتريتها. هناك شىء ما بالغ التأثير فى عملك".

"إنك رقيقة جدًا وعذبة معى، يا حبيبتى".

" لا، أنا صريحة معك، هذا كل ما فى الأمر".

"أشكرك".

"سوف تعود إليه مرة أخرى. سوف يحدث ثانية. الرسم لم يتخللك حتى الآن. فقط استمتع بنفسك فى الوقت الحالى. إنه جميل جداً حيث أنت. فقط، كن صبوراً. فقط خذ وقتك. لا شىء قد تلاشى. استمتع بالطقس، تمتع بجولاتك فى المشى، تمتع بالشاطئ والمحيط. لا شىء قد تلاشى ولا شىء قد تبدل".

عجيب ـ كل هذه الراحة التى يستمدها من كلماتها، ولكنه غير مقتنع لثانية واحدة بأنها كانت تعرف ما تتحدث عنه. لكنه تأكد أن الرغبة فى تحقيق الراحة ليست شيئاً قليلاً، وخصوصاً من شخص مازال يحبك بشكل إعجازى.

أخبرها: "لن أذهب إلى السباحة فى البحر بعد الآن، ألن تذهبى؟".

"تستطيع أن تسبح فى حمام السباحة، أليس كذلك؟".

"أستطيع".

"وهو كذلك، اسبح فى حمام السباحة".

وسألها عن التوءم، وهو يفكر لو أنه كان مازال مع "فايبى"، لو كانت "فايبى" معه الآن، فقط لو لم تكن "نانسى" مضطرة للعمل بشدة لتدعمه فى غياب زوجة متفانية، لو كان فقط لم يجرح "فايبى" بالطريقة التى فعل بها، إذا فقط لم يظلمها، لو فقط لم يكذب! لو هى فقط لم تقل، "لا أستطيع أبداً أن أثق فى أن تكون صادقاً مرة أخرى".

لم يبدأ الأمر حتى كان تقريباً فى سن الخمسين. كانت النساء الصغيرات فى كل مكان ـ ممثلات المصورون، سكرتيرات، مصففات الشعر، الموديلات، المحاسبات التنفيذيات. الكثير من النساء، وأنت تعمل وتسافر، وتتناول الغداء مع إحداهن، وما كان مدهشاً لم يكن هو ما حدث ـ أن يتخذ الزوج "امرأة أخرى"

عشيقة له ـ لكن المدهش أن ذلك استغرق وقتاً طويلاً حتى يحدث، حتى بعد أن تضاءلت الشهوة واختفت من زواجه. بدأ بامرأة جميلة شابة شعرها أسود فى التاسعة عشرة حينما استأجرها للعمل كسكرتيرة، وفى غضون أسبوعين من شغل الوظيفة، كانت تركع على ركبتيها على أرضية مكتبه وفرجها مرفوع لأعلى وهو يجامعها بينما ترتدى ملابسها بالكامل، فقط من فتحة عراوى الأزرار. لم يجامعها بالإكراه، على الرغم من أنه كان يأخذها بالمباغتة ـ لكنه حينئذ، وهو واع بأنه لم تكن لديه صفات مميزة ليتباهى بها ويظن نفسه راضياً بأن يعيش وفقاً للأعراف التقليدية وأن يسلك بطريقة أو بأخرى مثل الآخرين، قد فوجئ هو نفسه بقدر لا يقل من المباغتة. لقد كان دخولاً ميسراً لأنها كانت مبللة ورطبة جداً، وفى مثل ظروف التهور هذه لا يستغرق الأمر وقتاً من كل منهما لأن يصلا ذروة "الأورجازم". وفى صباح أحد الأيام بعد أن نهضت من على الأرضية وعادت إلى مكتبها فى الحجرة الخارجية، وبينما كان مازال واقفاً وجهه أحمر فى منتصف الحجرة يسوى ملابسه، فتح رئيسه "كلارينس" المشرف على المجموعة الإدارية ونائب الرئيس التنفيذى، فتح الباب ودخل. سأله "كلارينس": "أين شقتها؟" فرد قائلاً: "لا أعرف". فقال "كلارينس" بقسوة وهو يغادر المكان: "استخدم شقتها". لكنهما لم يستطيعا أن يوقفا ما كانا يفعلانه فى المكان والكيفية التى كانا يفعلانها بها، حتى على الرغم من أن ما كانا

يفعلانه واحداً من هذه الأفعال البهلوانية المكتبية والتى يمكن أن يخسر كل منهما فيها كل شىء. لقد كانا قريبين جداً من بعضهما البعض طوال اليوم وما كانا ليتوقفا. كل ما فكر فيه كلاهما هو أن تركع على ركبتيها على أرضية مكتبه وهو يقذف تنورتها على ظهرها ويقبض عليها من شعرها ويزيح "لباسها" ويخترقها بأقصى قوة يستطيعها غير عابئ كلية بأن يُكتشف أمرهما.

ثم جاء التصوير فى "جرينادا". كان هو مدير العرض، وراح هو والمصور الذى استأجره ينتقيان الموديلات، عشرة منهن للإعلان عن المناشف وهو الإعلان الذى سيكون إلى جوار بركة طبيعية صغيرة فى غابة استوائية، حيث تتغطى كل موديل برداء صيفى قصير، وتلف رأسها بعمامة من المنشفة المُعلن عنها كما لو كانت قد غسلت شعرها فى الحال. واتخذت الترتيبات، وتمت الموافقة على الإعلان، وكان فى الطائرة يجلس بمفرده بعيداً عن كل فرد آخر ولذلك استطاع أن يقرأ كتاباً ويستغرق فى النوم ويطير إلى هناك وهو محتفظ باتزانه.

وتوقفوا فى منطقة البحر الكاريبى، ونزل من الطائرة وتوجه إلى صالة الانتظار ونظر حوله، رأى كل الموديلات، ورحب بهن قبل أن يتوجه كل فرد إلى طائرة أخرى أصغر تقطع رحلة جوية قصيرة إلى الوجهة المقصودة، حيث التقطتهم عدة سيارات وعربات نصف جيب وهى التى قرر أن يركب إحداها

مع أحد الموديلات التى لفتت انتباهه عند استقدامها. لقد كانت الأجنبية الوحيدة فى التصوير، دانماركية تسمى "ميريت"، ربما فى الرابعة والعشرين، الأكبر من بين الموديلات العشرة،؛ فالباقيات فتيات أمريكيات فى الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. وهناك شخص على عجلة القيادة، وتجلس "ميريت" فى المنتصف، هو على الناحية الخارجية. كان وقت المساء والظلام شديد. مضغوطين مع بعضهما البعض، ويلف ذراعه على أعلى مقعدها. وفقط بعد لحظات من تحرك السيارة كان إصبع إبهامه فى فمها، وبدون معرفة بها، أصبح زواجه فى مهب الريح. إن الشاب الذى بدأ حياته وهو يأمل ألا يعيش أبداً حياة مزدوجة، كان على وشك أن يشق نفسه بالفأس نصفين.

وحينما ذهبا إلى الفندق وتوجه هو إلى غرفته، رقد معظم الليل يفكر فقط فى "ميريت". وفى اليوم التالى حينما تقابلا، قالت له: "لقد انتظرتك". الأمر كله كان سريعاً جداً ومكثفاً للغاية. صورا طوال اليوم فى منتصف الغابة إلى جوار بركة طبيعية صغيرة، وعملا بنشاط وجدية طوال اليوم بأكمله، وحينما رجعا وجد أن فتاة الإعلانات التى أمضت فترة طويلة فى هذه الوظيفة قد استأجرت بيتاً على الشاطئ فقط من أجله. لقد فتح لها المجال للكثير من الأعمال، وهكذا فإن ممثلة الإعلانات قد استأجرته من أجله، وانتقل هو من الفندق، وجاءت معه "ميريت"

وعاشا هناك على الشاطئ معاً لثلاثة أيام. وفى الصباح الباكر حينما يعود من الشاطئ بعد قيامه بالسباحة، تنتظره فى الشرفة، ترتدى فقط المايوه البكينى. وحينئذ قد يبدءان بأية طريقة من الطرق، بينما مازال هو مبتلاً من سباحته الطويلة. فى أول يومين، كان دائماً يداعب فرجها بأصابعه بينما هى ترقد فوقه حتى نظرت إليه أخيراً وقالت: "إذ كنت تحب هذه الفتحة الصغيرة فلماذا لا تستخدمها؟".

وبالطبع هو قد رآها ثانية فى نيويورك. وفى كل يوم تكون فيه غير مشغولة، يذهب إلى مكانها وقت الغداء. وفيما بعد فى يوم من أيام السبت كان يتمشى هو و"فايبى" و"نانسى" فى "الشارع الثالث" حينما رأى ميريت تمشى على الجانب الآخر من الشارع بهذه المشية المتهادية فى خط مستقيم كالسائرين نياماً والتى كان هدوؤها الوحشى دائماً يذبحه، كما لو لم تكن تقترب من أضواء "شارع اثنين وسبعين" تحمل كيس البقالة، بل إنها تجتاز بوداعة "سرنجيتى"(*)، "ميريت جيسبيرسن" فى كوبنهاجن وهى ترعى فى حشائش السافانا وسط ألف من الظباء الإفريقية. فالموديلات لسن مضطرات لأن يكن فى "رفع الإبرة" فى هذه الأيام، وحتى قبل أن يكتشفها من خلال تزلجها ويرى حزم شعرها الذهبى على ظهرها، هو قد حددها على أنها كنزه، جائزة الصياد الأبيض.من

(*) Serengeti نظام بينى لإقليم جغرافى يقع شمال غرب تنزانيا ويمتد حتى جنوب غرب كينيا.

خلال ثقل ثدييها بداخل بلوزتها، والكتلة المبهرة لمؤخرتها التى قد أصبحت فتحتها الصغيرة تمنحه مثل هذه اللذة. هو لم يظهر الخوف ولا الانفعال عند رؤيتها، على الرغم من أنه شعر بالاضطراب الشديد ووجد نفسه يذهب ليطلبها بالتليفون بمفرده. الوصول إلى التليفون كان هو كل ما فكر فيه باقى فترة ما بعد الظهيرة. لم تكن هذه تلك الفتنة الطاغية للسكرتيرة على أرضية المكتب. لكنها السيادة الصريحة للمخلوقة بداخلها التى تفوقت على غريزة البقاء لديه كقوة طاغية فى تأثيرها الجامح. لقد كانت هذه أكبر مغامرة وحشية فى حياته، المغامرة التى بدأ يفهمها فقط على نحو خافت، والتى يمكنها أن تجتاح كل شىء. فقط عند مرورها، تحقق له أنها ربما يكون خيالاً وهمياً نوعاً ما فى عمر الخمسين أن يعتقد بأنه يمكنه أن يجد "فتحة" تحل مكان كل شىء آخر.

وبعد بضعة أشهر طار إلى باريس من أجل أن يراها. كانت تعمل فى أوروبا لمدة ستة أسابيع، وعلى الرغم من أنهما كانا يتكلمان سراً فى التليفون غالباً ثلاث مرات يومياً، لم يكن هذا كافياً لأن يطفئ الرغبة عند أى منهما. وقبل أسبوع من يوم السبت الذى كان سيقود فيه هو و"فايبى" إلى "نيوهامبشاير" ليعودوا بـ"نانسى" إلى البيت من معسكر صيفى، أخبر "فايبى" أنه سوف يسافر إلى باريس للتصوير فى نهاية هذا الأسبوع. فهو سيغادر الخميس مساءً ويعود

الإثنين صباحاً. وسيذهب معه "عزرا بولوك"، مدير الحسابات، وأنهما سيتقابلان مع طاقم أوروبى هناك. كان يعرف أن "عزرا" مع عائلته حتى "عيد العمال"، يتعذر الاتصال به فى جزيرة صغيرة فى البحر تبعد بضعة أميال عن ميناء "فريبورت الجنوبى"، "ماين"، بعيداً جداً عن أى شىء حتى أنه يمكن مشاهدة الفقمات تتسامر على حواف المنحدرات الصخرية القريبة. لقد أعطى لـ"فايبى" اسم ورقم الفندق فى باريس، ثم فكر عشر مرات فى اليوم فى مخاطرته والفرصة فى أن تكتشفها، لمجرد أن يستطيع أن يقضى هو و"ميريت" عطلة نهاية أسبوع طويلة فى عاصمة العالم للعشاق. لكن "فايبى" ظلت لا يراودها شك، وبدا أنها تتطلع إلى أن تدفع بنفسها "نانسى" إلى التقدم. فقد كانت شغوفة لأن تأتى بها إلى المنزل مع الصيف، تماماً مثلما كان هو يتحرق شوقاً لأن يرى "ميريت" بعد غياب شهر ونصف، ومن أجل ذلك فهو قد طار مساء الخميس، وعقله مشغول بـ"الفتحة" الصغيرة وما تحب هى أن يفعل بها. نعم، تسمرت الأحلام على ما لا يزيد عن هذا طوال الطريق عبر الأطلنطى على "الإير فرانس".

ما كان سيئاً هو الطقس. رياح عاتية وعواصف هوجاء اجتاحت أوروبا، وتعطلت الطائرات عن الإقلاع طوال يوم الأحد حتى الإثنين. وبقى فى كلا اليومين مع "ميريت" التى جاءت لتكون بالقرب منه حتى آخر لحظة ممكنة، لكن حينما بات من الواضح أنه لن تكون

هناك رحلات من مطار "ديجول" حتى يوم الثلاثاء فى الصباح الباكر، استقلا سيارة أجرة عائدين إلى "رو دى بوزارتس"، إلى فندق "ليفت بانك" الصغير الأنيق المفضل عند "ميريت"، حيث استطاعا أن يعيدا حجز غرفتهما، الغرفة ذات المرايا الزجاجية القاتمة. وخلال كل أمسية للنزهة يأخذانها بالتاكسى فى باريس، كانا يمارسان الألعاب الماجنة نفسها، ودائماً كما لو كانت بدون قصد ولأول مرة: يضع يده على ركبتها، وتباعد هى ما بين ساقيها بالقدر الذى يسمح له بالوصول إلى ما أسفل لباسها الحريرى. لا شىء أكثر من ذلك بالفعل إلا قطعة من الملابس الداخلية الفاخرة. يدخل أصبعه بينما هى تعدل رأسها لتبدو أنها تنظر دون مبالاة من التاكسى على واجهات المحلات المضيئة، وهو يميل للخلف فى مقعده، مدعياً أى شىء، إلا أنه يُثَبِت نفسه على الوضع الذى تستطيع معه أن تستمر فى التصرف كما لو أنه لا أحد يلمسها، حينما يشعر أنها بدأت تفقد القدرة على التحكم فى انفعالها. فـ"ميريت" تتحمل أى شىء فى الاستثارة الجنسية إلى حد. (فيما سبق، فى محل الجواهرالعتيق التقليدى أسفل شارع فندقهما، يزين رقبتها بحلية مدهشة، قلادة عقد، مرصعة بالألماس وواحد من أندر الأحجار الكريمة من العقيق الأحمر معقودة فى سلسلتها الذهبية الأصلية. ومثل الابن النجيب لأبيه الذى كانه، يطلب أن يفحص الأحجار بالعدسة المكبرة للجواهرجى. تسأله "ميريت": ما

الذى تبحث عنه؟" فيقول: "عيوب، تشققات، التلوين. إذا لم يظهر شىء تحت قوة تكبير لعشر مرات، فإن الماسة يمكن أن تُوَثّق على أنها خالية من العيوب. أفهمت؟ فكلمات أبى تخرج من فمى حينما أتكلم عن الجواهر". فقالت له: "ولكن ليس حينما تتحدث عن أى شىء آخر". "ليس عن أى شىء عنك. فهذه الكلمات تخصنى". ليس أثناء التسوق، ليس أثناء المشى فى الشوارع، ليس أثناء ركوب المصعد أو تناول القهوة معاً فى ركن من أركان شقتها، استطاعا أن يتوقفا عن إغواء بعضهما البعض. "كيف عرفت أن تفعل هذا، أن تمسك بالشىء؟". "العدسة المُكبِرة". "كيف عرفت أن تمسك بالعدسة بعينك هكذا؟". "أبى علمنى. أنت فقط تُحكمين الضغط بتجويف العين حولها. تماماً مثلما تفعلين". "إذًا ما لونها؟". "أزرق. أبيض مشوب بالزرقة. هذا كان اللون الأفضل فى الأيام الخوالى. أبى كان سيقول إنها مازالت كذلك. قد يقول أبى، فيما وراء الجمال والحالة والقيمة، الماسة خالدة لا تفنى، خالدة، كانت هى الكلمة التى استعذب مذاقها". فقالت "ميريت": ومن ذا الذى لا يفعل؟". سألها: "ما الكلمة بالدانماركية؟". " Uforgaengelig إنها فقط تشبه كلمة رائعة". "لماذا لا نأخذها؟"، هكذا أخبر البائعة التى كانت تتحدث بدورها الإنجليزية بطلاقة مع قليل من الفرنسية - وببراعة فائقة - أخبرت الرفيقة الشابة للسيد الفاضل الكبير، "المدموازيل محظوظة جداً. Une femme choy'ee ، وكانت

التكلفة تعادل حوالى قيمة المخزون بالكامل فى محل اليزابيث، إن لم تكن تتجاوزها، بالرجوع إلى الوقت الذى كان تُسعر بمائة دولار خواتم الخطوبة ذات الفص ربع أو نصف قيراط ليتم ترتيبها وفقاً للحجم لزبائن أبيه عن طريق رجل يعمل على طاولة فى مكان مغلق فى شارع فريلنجايزن حوالى سنة ١٩٤٢ والآن هو يسحب "الأصبع" المبلل بلعابها، يعطر شفتيها به، ثم يضغطه بين أسنانها لتلعقه بلسانها، يذكرها بمقابلتهما الأولى وما جسرا على فعله كغرباء، رجل إعلانات أمريكى فى الخمسين وموديل دانماركية فى الرابعة والعشرين، يعبران جزيرة فى البحر الكاريبى فى الظلام، لا حراك لهما من فرط الانتشاء. يذكرها أنها كانت له وهو لها. طائفة من اثنين.

كانت هناك رسالة من "فايبى" تنتظره فى الفندق: "اتصل بى فوراً. أمك مريضة بشدة".

حينما حدثها تليفونياً علم أن أمه التى تبلغ الثمانين قد أُصيبت بجلطة فى المخ فى الخامسة من صباح الإثنين بتوقيت نيويورك، ومن غير المتوقع أن تبقى على قيد الحياة.

شرح لـ"فايبى" ما يتعلق بالأحوال الجوية، وعلم أن "هواى" كان بالفعل فى طريقه للشرق، وأن والده يسهر عليها بجانب فراشها. وسجل رقم تليفون حجرة والدته فى المستشفى، وأخبرته "فايبى" أنها بمجرد أن تتمالك نفسها سوف تتوجه إلى نيوجيرسى بنفسها لتكون إلى جانب والده فى المستشفى حتى يصل

"هواى". كانت فقط تنتظره ليتصل بها ثانية. "لقد افتقدتك مع الدقائق القليلة هذا الصباح. أخبرنى موظف الاستقبال فى الفندق أن المدام والمسيو قد غادرا حالاً إلى المطار".

قال: "نعم، لقد ركبت مع ممثلة التصوير فى سيارة الأجرة".

قالت باشمئزاز: "لا، أنت ركبت فى التاكسى مع الدانماركية التى تبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً والتى ترتبط معها بعلاقة. أنا آسفة، لكنى لا أستطيع بعد الآن أن أتغاضى وأنظر بطريقة آخرى. لقد نظرت بطريقة أخرى مع هذه السكرتيرة. لكن الإهانة وصلت الآن إلى حد بعيد جداً. باريس، التخطيط. التعمد وسبق الإصرار. التذاكر ووكالة السفريات. أخبرنى، أى من سخافاتك الرومانسية خططت لها فى باريس من أجل مهمتك السرية؟ أين أكلتما أنتما الاثنان؟ أى مطاعم فاخرة ذهبتما إليها؟".

"فايبى، أنا لا أعرف عما تتحدثين. أنت لا تقولين كلاماً له معنى. سأحضر على أول طائرة يمكن أن تقلنى".

ماتت أمه قبل أن يستطيع أن يصل المستشفى فى إليزابيث بساعة. كان أبوه وأخوه جالسين بجانب الجثمان الذى رقد تحت أغطية الفراش. إنه لم ير من قبل أمه على سرير مستشفى، على الرغم من أنها بالطبع رأته هناك أكثر من مرة. ومثل "هواى" كانت تتمتع بصحة جيدة طوال حياتها. لقد كانت هى التى

تسارع إلى المستشفى لتطمئن الآخرين. قال "هواى": "لم نخبر إدارة المستشفى بوفاتها. انتظرنا. لقد أردنا أن نتمكن من رؤيتها قبل أن يأخذوها". ما رآه كان خطوط رسم مجسم لامرأة عجوز نائمة. ما رآه كان حجراً، كتلة ثقيلة مظلمة متيبسة، تقول: الموت هو مجرد موت - لا يزيد عن ذلك.

عانق أباه الذى ربت على يده وقال: "إنه أفضل بهذه الطريقة. أنت لم تكن لتريد لها أن تعيش بالطريقة التى تركها بها هذا الشىء".

وحينما رفع يد أمه ووضعها على شفتيه، أدرك أنه فى غضون ساعات قد فقد المرأتين اللتين كان يستند على إخلاصهما.

مع "فايبى" هو كذب وكذب، لكن بدون فائدة. أخبرها أنه قد ذهب إلى باريس ليقطع علاقته مع "ميريت". فقد كان يتعين عليه أن يراها وجهاً لوجه ليفعل ذلك حيث كانت تعمل.

"لكن فى الفندق، فى الأثناء التى كنت تقطع فيها العلاقة، ألم تنم معها فى الليل فى الفراش نفسه؟".

"نحن لم ننم. كانت تبكى طوال الليل".

"طوال الليالى الأربع؟ هذا بكاء كثير على دانماركية عمرها أربعة وعشرون عاماً. لا أعتقد أنه حتى "هاملت" قد بكى هذا القدر من البكاء".

"فاييى، لقد ذهبت لأخبرها أنها قد انتهت - وهى قد انتهت".

سألت "فاييى": "ما الخطأ الذى ارتكبته، واستلزم أن تعاقبنى عليه بمثل هذه الإهانة؟ لماذا أردت أن تقوض كل شىء؟ هل كان أمراً بشعاً إلى هذا الحد؟ يتعين علىَّ أن أتجاوز الصدمة، لكننى لا أستطيع. أنا التى لم أشك أبداً فيك، وحتى نادراً ما حدث وأن سألتك، والآن لا أستطيع أن أصدق كلمة أخرى تقولها. لا أستطيع أن أثق فى أن تكون صادقاً مرة أخرى. نعم أنت جرحتنى من قبل مع السكرتيرة، لكننى أغلقت فمى. فأنت لم تعرف حتى أننى قد عرفت، هل عرفت؟ حسناً، هل فعلت؟".

"لم أفعل، لا".

"لأننى خبأت أفكارى عنك - وللأسف لم أستطع أن أخفيها عن نفسى. والآن أنت تجرحنى مع دانماركية، وتهيننى بالكذب، الآن أنا لن أخفى أفكارى وأغلق فمى. امرأة ناضجة ذكية، رفيقة تفهم كيف يكون الاعتماد المتبادل. تأتى وتخلصك من سيسيليا، تهبك ابنة رائعة، تغير حياتك بأكملها، وأنت لا تعرف ماذا تفعل لها ماعدا أن تضاجع دانماركية. فى كل مرة أنظر إلى ساعتى، وأظل أحسب كم كان هو الوقت فى باريس، وما الذى يمكن أن تكونا تفعلانه. لقد حدث هذا طوال عطلة نهاية الأسبوع. إن أساس كل شىء هو الثقة، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟".

كان عليها أن تقول اسم "سيسيليا" لتذكره بخطب التقريع الانتقامية المطولة التى كانت تصبها أمه وأبوه عن طريق زوجته الأولى التى بعد خمسة عشر عاماً لم تعد مجرد "سيسيليا" المهجورة بل أصبحت له "كاسندرا"(١) التى تنبأت بالمستقبل: "إننى أشفق على الآنسة المدللة الصغيرة "ميس موفيت"(٢) التى تأتى بعدى - إننى أشفق حقيقة على الفاسق البروتستانتى التافه الحقير!".

كانت "فايبى" تخبره: "أنت تستطيع أن تصمد أمام أى شىء، حتى لو كانت الثقة قد اجتُرِحت، فهى شىء خاص. وتصبح بعد ذلك شريكاً فى الحياة بطريقة مختلفة، لكن مازالت هناك إمكانية أن تظل شريكاً. ما عدا الكذب - الكذب رخيص، تحكم وضيع فى شخص آخر. إنه مراقبة للشخص الآخر وهو يتصرف فى ضوء معلومات ناقصة - بكلمات أخرى، ملاحظة الآخر وهو يهين نفسه. الكذب أمر مألوف جداً، ولكن إذا كنت أنت من تتلقاه فى النهاية، فإنه يكون بمثابة المفاجأة المذهلة. إن الناس الذين تغدرون بهم أنتم - الكذابين - توجهون لهم قائمة متزايدة من الإهانات حتى لا تستطيعوا بالفعل المساعدة فى شىء سوى أن تحتقروهم، أليس كذلك؟ أنا متأكدة أن

(١) كاسندرا: اسم أميرة فى الميثولوجيا اليونانية لها القدرة على رؤية المستقبل.

(٢) ميس موفيت: عنوان كتاب لأغانى الأطفال ربما كتبه الدكتور توماس موفيت الإنجليزى فى القرن السادس عشر.

الكذابين بارعون ومثابرون ومراوغون حتى تصل إلى النقطة التى تصبح فيها أنت نفسك الشخص الذى تكذب عليه ولست صاحب القدرات الخطيرة اللامحدودة. أنت ربما لا تظن حتى أنك تكذب ـ أنت تظن أنه فعل من أفعال الرحمة للمحافظة على مشاعر الزوجة الباردة جنسياً المسكينة. وربما تظن أن كذبك هو بطبيعته فضيلة، فعل من أفعال الكرم تجاه الدجاجة المغفلة التى تحبك. أو ربما تكون مجرد ما تكون ـ كذبة سخيفة، كذبة سخيفة تلو أخرى. أوه، لماذا تستمر ـ كل هذه المسلسلات معروفة جيداً"، "الرجل يفقد الشهوة الجنسية فى الزواج ولا يستطيع أن يعيش بدونها. الزوجة براجماتية. الزوجة واقعية. نعم، ذهبت الشهوة، إلا أنها أكبر ولم تعد هى ما كانت عليه، لكن بالنسبة لها يكفيها العاطفة الجسدية، مجرد أن تكون موجودة معه فى الفراش، هى تحتضنه، هو يعانقها. العاطفة الجسدية، الحنان، الرفقة، والالتصاق... لكنه لا يستطيع أن يقبل هذا. بسبب أنه رجل لا يستطيع أن يعيش بدونه. حسناً، أنت ستعيش بدونه الآن أيها السيد. ستعيش بدون الكثير والكثير. سوف تجد ما تعيش بدونه حولك فى كل مكان! أوه، اذهب بعيداً عنى، أرجوك. لا أستطيع أن أحتمل الدور الذى اختزلتنى فيه. زوجة منتصف العمر الجميل الممرورة بالرفض، مستهلكة من الغيرة المتعفنة! غاضبة! بغيضة! أوه، أنا أكرهك من أجل هذا أكثر من أى شىء. أذهب، أترك هذا البيت. لا أستطيع

أن أتحمل رؤيتك، هذا الفاسق الذى يرتدى مسوح الطيبة ويكتسى وجهه بالبراءة! لن تنال منى الغفران ـ أبداً! لن أبدد وقتى أكثر من هذا! اذهب، أرجوك! اتركنى بمفردى!".

"فايبى ـ".

"لا! لا تنطق باسمى!".

لكن هذه المسلسلات بالفعل معروفة جيداً ولا تتطلب المزيد من التفصيل. طردته "فايبى" فى الليلة التى أعقبت دفن أمه، وطُلقا بعد الاتفاق على التسوية المالية، ولأنه لم يعرف ما الذى يفعله غير هذا ليضفى المعنى على ما حدث، أو كيف يبدو مسئولاً بصورة أخرى ـ وليصلح من نفسه خصوصاً فى عينى "نانسى" ـ فبعد بضعة شهور تزوج "ميريت". ونظراً إلى أنه قد دمر كل شىء من أجل تلك التى تبلغ نصف عمره، فبدا من المنطقى فقط أن يستمر ويرتب كل شىء مرة أخرى بجعلها زوجته الثالثة ـ وهو لم يكن أبداً بارعاً بالقدر الكافى كرجل متزوج أن يسقط فى الخيانة الزوجية أو أن يقع فى حب مع امرأة مرتبطة.

ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف أن "ميريت" كانت شيئاً آخر أكثر من تلك "الفتحة" الصغيرة أو ربما شيئاً أقل. واكتشف عجزها أن تفكر فى أى شىء بدون كل شكوكها التى تقتحم تفكيرها وتشوهه. فاكتشف الأبعاد الحقيقية لتكبرها، فعلى الرغم من أنها فقط فى العشرينات من عمرها، إلا أن خوفها

رهيب من الشيخوخة. واكتشف مشكلاتها مع البطاقة الخضراء وورطتها الضريبية القائمة منذ زمن مع مكتب ضريبة الدخل الناجمة عن إغفالها لسنوات عن تسجيل العودة. وحينما احتاج إلى جراحة الشريان التاجى العاجلة، اكتشف رعبها من المرض وقلة حيلتها فى مواجهة الخطر. وإجمالاً تأخر قليلاً فى معرفة أن كل جرأتها كانت متضمنة فى الإثارة الجنسية، وأن تصرفها فى كل شىء جنسى فيما بينهما يرجع فى النهاية إلى الجاذبية الطاغية فقط. لقد استبدل أكثر زوجة مفيدة يمكن تخيلها بزوجة تتشظى متناثرة عند أخف ضغط. لكن فى أعقاب الكارثة الفورية، بدا أن الزواج منها أبسط طريقة للتغطية على الجريمة.

بدا مرور الوقت مؤلماً بدون الرسم. كانت هناك تمشية صباحية لمدة ساعة، وفى وقت متأخر بعد الظهيرة هناك عشرون دقيقة مع الأعمال الخفيفة، ونصف ساعة لأداء دورات هادئة فى حمام السباحة. النظام اليومى الذى حثه طبيب القلب على تنفيذه. لكن هذا ما كان، كانت هذه هى أحداث يومه. ما مقدار الوقت الذى تستطيع أن تقضيه وأنت تحدق فى المحيط، حتى لو كان هو المحيط الذى أحببته منذ أن كنت صبياً؟ إلى أى مدى يستطيع هو أن يراقب أمواج المد والجزر تمتد وتنحسر بدون أن يتذكر، ربما مثل أى شخص يتأمل البحر مستغرقاً فى خياله فى أن الحياة قد وهِبت له، مثلما منحت للكل، عشوائياً، مصادفة، لكن لمرة واحدة، ولسبب غير معروف أو

يمكن معرفته؟ وفى الأمسيات كان يذهب بالسيارة ليأكل سمك بلوفيش المشوى على الطاولة الخلفية لمحل السمك الواقع على حافة الخليج الذى تبحر القوارب منه إلى المحيط تحت الجسر المتحرك القديم، ويتوقف أحياناً فى المدينة حيث تقضى عائلته إجازتها فى وقت الصيف. يخرج من السيارة على طريق المحيط ويمضى إلى منتزه الشاطئ ويجلس على دكة فى مواجهة الشاطئ والبحر، البحر الهائل الذى يُغَيّر باستمرار بدون أن يتغير أبداً منذ أن كان الولد النحيل الذى يصارع البحر. كانت هذه الدكة هى بالفعل الدكة التى استخدمها والداه وجدوده ليجلسوا فى الأمسيات ويتنسموا الهواء ويستمتعوا بالمنتزه على طول الشاطئ مع الجيران والأصدقاء، وهذا هو بالفعل الشاطئ الذى تتنزه فيه عائلته وتتشمس، حيث كان هو و"هواى" وأصدقاؤهما يذهبون للسباحة، على الرغم من أنه كان الآن بدون شك ضعف اتساعه الذى كان عليه حينئذ، بسبب مشروع الإصلاح الذى صممه الجيش حديثاً. إلا أنه على اتساعه الذى كان عليه، مازال هو شاطئه، وفى مركز الدوائر التى يدور فيها عقله حينما يتذكر أفضل أيام الصبا. لكن كم من الزمن يستطيع المرء أن يقضيه فى تذكر أمتع أيام الصبا؟ ماذا عن الاستمتاع بأفضل أيام الكِبَر؟ أم إن أفضل أيام الكِبَر هى مجرد هذا - الحنين لأجمل أيام الصبا، وللبرعم النحيف الذى كان حينئذ جسده، وهذا الركوب للأمواج من خارج الطريق حينما تبدأ

فى التكون، يركبها ويداه ممدوتان ومضمومتان كرأس السهم يتبعه باقى جسده النحيف من خلفه مثل رمح السهم، يركبها حتى النهاية مع أن الحصوات الحادة الدقيقة والأصداف المسننة وشظاياها المتكسرة عند حافة الشاطئ تحدث خدوشاً دامية فى قفصه الصدرى، فيسرع على قدميه ويتحول مسرعاً مائلاً عبر الأمواج المتكسرة المنخفضة حتى يصل ارتفاعها عند ركبتيه وتكون عميقة بما يكفيه لأن يغطس ويبدأ فى السباحة بجنون إلى البراميل الطافية - إلى الأطلنطى المتقدم الأخضر، متدحرجاً دون توقف تجاهه مثل الحقيقة المستقبلية العنيدة - وإذا كان محظوظاً يفعلها هناك فى التوقيت الدقيق ليلحق بالموجة الكبيرة الثانية ثم التالية فالتالية حتى يعرف من ميل ضوء الشمس المنخفض للداخل الذى يلمع عبر الماء أنه قد حان الوقت ليذهب. يجرى إلى البيت حافى القدمين مبللاً مالحاً، متذكراً عظمة هذا البحر الهائل وهو يطن فى أذنيه، ويلعق ساعده ليتذوق جلده المنتعش بماء المحيط الذى صقلته الشمس. ومع النشوة التى صاحبت اليوم كله من ضرب البحر ولسعاته والمذاق والرائحة التى أسكرته حتى أنها دفعته إلى حافة أن يقرص على أسنانه ليمزق تخشب نفسه ويتذوق وجود لحمه.

وبأسرع ما يستطيع يعبر على كعبيه رصيف المشاة الخرسانى الذى لم يزل ساخناً منذ النهار وحينما يصل إلى سكنهم يستدير عائداً إلى الدش

الخارجى بجدرانه الخشبية المشبعة بالبلل، حيث يزيل الرمال المبتلة عن المايوه ويركلها من فوق قدميه إلى المياه الباردة التى تدق فى رأسه. إن تدفقات موجات المد والجزر ومحنة الرصيف المحرق وصدمة ارتعاشة الدش المثلج ومباركة العضلات الجديدة المشدودة والأطراف النحيلة واسمرار البشرة التى عليها مجرد ندبة شاحبة وحيدة من جراحة عملية الفتاق المختبئة أعلى الفخذ - لم يتبق شىء من أيام أغسطس هذه بعدما تحطمت الغواصات الألمانية ولم يعد هناك بحارة غرقى يمكن الشعور بالقلق بشأنهم، وهذا ما لم يكن واضحاً بصورة مدهشة. ولم يكن لديه أى سبب يحول دون تأكده من اكتمال سلامته الجسمانية.

حينما يعود من العشاء، يحاول أن يستقر ويقرأ. كانت لديه مكتبة ضخمة من كتب الفن تغطى حائطاً بأكمله فى المرسم؛ حيث كان يراكمها ويدرسها طوال حياته، لكنه الآن لا يستطيع أن يجلس ويقلب صفحات واحد منهم بدون الشعور بالسخف. إن الوهم - كما يفكر فيه الآن - قد فقد سطوته عليه، وبهذا فإن الكتب ضخمت فقط إحساسه غير الناضج المثير للضحك اليائس الذى كان عليه، وضخمت من الفراغ الذى يكتنف المسار الذى كرس له تقاعده.

كانت محاولته أن يمضى وقتاً أطول من الوقت القصير الذى يقضيه فى صحبة المقيمين على شاطئ "ستارفيتش" أيضاً غير محتملة. فعلى العكس منه كان

الكثيرون قادرين ليس فقط على إجراء حوارات كلية تدور حول أحفادهم، بل كانوا قادرين على أن يجدوا المبررات الكافية لأن يبقوا فى وجود أحفادهم. وحينما يقع فى صحبتهم يجرب أحياناً نوعاً من الوحدة فيما يشعر أنه أنقى صورها. وحتى هؤلاء فيما بين المقيمين فى القرية من بين المفكرين والمتحدثين المفوهين، لم يكونوا مهتمين أن يكونوا معه أكثر من مرة كل فترة. وكان معظم المقيمين من كبار السن مستقرين فى زواجهم لمدة عقود، متصلين مازالوا بما يكفى مع ما تبقى أياً كان من سعادتهم الزوجية، حتى أنه نادراً ما وجد الزوج الذى يمضى بمفرده لتناول الغداء بدون الزوجة. إلا أنه ربما ينظر أحياناً بحزن على مثل هؤلاء الأزواج حينما يخيم ظلام الليل أو ما بعد ظهيرة أيام الأحد، هناك باقى ساعات الأسبوع للتفكير فيها، وحياتهم لم تكن بالنسبة له حياة حينما يكون فى قمة اكتئابه الحزين. المحصلة هى أنه ما كان له مطلقاً أن ينتقل إلى مثل هذا المجتمع فى المقام الأول. هو فقط استبدل مكانه الطبيعى حينما كان أكثر ما يتطلبه العمر أن يمد جذوره كما كانت على امتداد تلك السنوات وهو يدير القسم الإبداعى فى الوكالة. إنه يقوى بالاستقرار وليس أبداً بالجمود. وهذا كان ركوداً. الآن هناك غياب لكل أشكال السلوى، وعقم تحت عنوان العزاء، ولا سبيل إلى الرجوع إلى ما كان. لقد أدركه شعور بالآخرية. "الآخرية"، كلمة فى لغته الخاصة لتصف حالة أن يكون كل شىء فيما عدا أن

يكون غريباً عنه، حتى استخدمتها الطالبة التى تدرس الفن، "ميليسنت كرامر"، وهى ترتجف لتندب حظها على حالها التعيس. لا شىء بعد الآن يثير فضوله أو يلبى احتياجاته، لا رسمه، ولا عائلته، ولا جيرانه، لا شىء سوى المرأة الشابة التى تسير إلى جواره على الممشى عند الصباح. يا إلهى، لقد فَكَر، الرجل الذى كنته ذات مرة! الحياة التى أحاطت بى! القوة التى كانت لى! لا توجد "آخرية" أشعر بها فى أى مكان! فى وقت من الأوقات كنت إنساناً كاملاً.

هناك فتاة بعينها لم يكن يتخلف عن التلويح لها حينما كانت تمشى، وفى أحد الصباحات خرج ليقابلها. دائماً هى ترد بالتلويح له وتبتسم، وحينئذ يراقبها وحيداً وهى تواصل السير. فى هذه المرة أوقفها. نادى عليها، "آنسة، آنسة، أريد أن أتحدث إليك"، وبدلاً من أن تهز رأسها بما يعنى لا وتنطلق سريعاً وهى تقول، "لا أستطيع الآن"، كما تخيلها قد تفعل بالكامل، التفتت وأسرعت عائدة إلى حيث كان ينتظر عند درجات السلم الخشبى المفضى إلى الشاطئ، ووقفت وهى تضع يديها على فخذيها فقط على بعد قدم واحد منه، تتصبب عرقاً، مخلوق دقيق مُشكل بإتقان. وعندما هدأت أنفاسها واسترخت بالكامل ضربت أرضية الممشى بالحذاء الرياضى بإحدى قدميها مثلما يفعل فرس بينما تتطلع إلى هذا الرجل غير المعروف خلف نظارة الشمس، والذى كان ستة أقدام وثلاثة، وله رأس يكسوه بالكامل الشعر

الرمادى المتموج. وتصادف أنها كانت تعمل لمدة سبعة أعوام فى وكالة إعلانات فى فيلادلفيا، وعاشت هنا على الشاطئ، وكانت حالياً فى إجازتها لمدة أسبوعين. وحينما أخبرها باسم وكالة نيويورك حيث عمل معظم فترات حياته، كانت متأثرة بشكل رائع؛ فصاحب العمل لديه كان أسطورياً، ولمدة العشر دقائق التالية أجريا نوعاً من الحديث الإعلانى الذى لم يرق له قط. ربما تكون فى أواخر العشرينات، لكن مع شعرها الطويل المجعد الأسمر المحمر المعقود للخلف، وفى شورت الركض القصير والقميص بدون أكمام والذى كان صغيراً مثلما كانت هى، يمكن أن تبدو فى الرابعة عشرة من عمرها. لقد حاول مراراً أن يمنع نظره المحملق من الوقوع على الثديين المنتفخين اللذين كانا يرتفعان ويهبطان مع تنفسها. أن تتصرف عنه هذا هو العذاب. فكرة مهينة للغريزة الفطرية وتهديد لسلامته العقلية. فاستثارته الآن لا تتناسب مع أى شىء حدث أو يمكن أن يحدث. لم يكن عليه فقط أن يخفى جوعه؛ حتى لا يصيبه الجنون، كان يتعين عليه أن يبيده. إلا أنه استمر بعناد كما لو كان قد خطط، وهو مازال نصف مُصَدِق أنه يوجد خليط من الكلمات التى يمكن بشكل ما أن تنقذه من الإحباط. قال: "لقد لاحظتك وأنت تمشين". وفاجأته بالرد: "لقد لاحظتك وأنت تلاحظيننى". "أى نوع من الصيد تكونين؟"، هكذا سمع نفسه يسألها، لكنه كان شاعراً بأن الصدام حينئذ خارج عن نطاق سيطرته، وأن كل شىء كان

يجرى سريعاً جداً - شاعراً أنه لو كان من الممكن، حتى لو كان أشد تهوراً مما كان حينما علق قلادة العقد هذه التى توازى تكلفتها ثروة صغيرة حول عنق "ميريت" فى باريس. كانت "فايبى" الزوجة المخلصة و"نانسى" الطفلة المدللة فى البيت فى نيويورك تنتظران عودته - لقد تحدث مع "نانسى" فى اليوم السابق، فى غضون ساعات فقط من عودتها من المعسكر الصيفى - ومازال يخبر البائعة، "حسناً، سوف نأخذها. لست بحاجة لأن تغلفيها. الآن "ميريت" دعينى أفعل هذا. أهديك هذا العقد، إنه يسمى القلادة ذات المشبك الذهبى. فى الثلاثينات ربما كان هو المشبك الأكثر أماناً الذى يحيط بقطعة مثل هذه. تعالى أرينى عنقك". "ما الذى يدور فى ذهنك؟"، هكذا ردت السائرة بجرأة، بجرأة شديدة لدرجة أنه شعر بالإحباط ولم يعرف مباشرة كيف سيكون رده. كانت سرة بطنها مصطبغة بالسمرة وذراعاها نحيلتين، وردفاها بارزين مستديرين ومتماسكين، وساقاها رفيعتين مشدودتين بعضلات قوية ظاهرة، وكان ثدياها يناسبان تماماً امرأة لا يزيد طولها عن خمسة أقدام. يشبه قوامها المغرى قوام "فتاة فارجا"(*) فى رسومات المجلات القديمة فى الأربعينيات، لكنها تحفة مصغرة، "فتاة فارجا" الوديعة، هى السبب فى أنه بدأ يلوح لها بيده فى المقام الأول.

(*) فتاة فارجا Varga Girl اسم يطلق على نوع من الرسومات البوسترز للفتيات بالمايوهات وترجع التسمية إلى المصور الأمريكى البرتو فارجاس.

قال: "أى نوع من الصيد تكونين؟"، وهى ردت: "ما الذى يدور فى ذهنك؟"، والآن ماذا؟ خلع نظارته الشمسية حتى تستطيع أن ترى عينيه وهو يتفرس فيها. هل هى فهمت ما الذى تدل عليه إجابتها له بهذا الشكل؟ أم أنها كانت شيئاً ما قالته لمجرد أن تقول شيئاً، لمجرد أن تبدو مسئولة عن نفسها حتى لو كانت مثلما هى تشعر بالرعب وتفر من أعماقها؟ منذ ثلاثين عاماً مضت ما كان يشك فى نتيجة مطاردته لها، صغيراً مثلما كانت هى، ولم تحدث أبداً له إهانة الرفض. بيد أنه افتقد لذة الثقة، ومعها المتعة الكبرى للتبادل. لقد بذل ما فى وسعه لإخفاء قلقه وتلهفه - والحافز على اللمس - والتلهف فقط على جسد مثل هذا - وتفاهة الأمر برمته - وتفاهته هو - والنجاح الظاهر، لأنه حينما يأخذ قطعة من الورق من محفظته ويكتب عليها رقم تليفونه، تتغير ملامح وجهها وتجرى ضاحكة منه، لكن تأخذها بابتسامة متلاعبة فيما يشبه الموافقة، والتى يمكن أن يصاحبها بسهولة كركرة قطة سعيدة. قال: "أنت تعرفين أين أنا"، قالها وهو يشعر بحاله ينمو صلباً تحت بنطلونه بصورة غير قابلة للتصديق سريعة وسحرية، كما لو كان فى الخامسة عشرة. ويشعر أيضاً بإحساس الخصوصية، بالتفرد الرائع الذى يميز اللقاء الجنسى الطازج وعلاقة الحب، وهو إحساس معاكس للخمول وافتقاد الشعور بهوية الذات فى المرض الخطير. مسحت وجهه بعينين واسعتين زرقاوين مفعمتين

بالحياة. قالت وهى شاردة: "هناك شىء ما غير عادى فيك". قال: "نعم، يوجد شىء غير عادى"، وضحك: "من مواليد سنة ١٩٣٣." فأخبرته: "يبدو أنك تناسبنى بصورة رائعة". ورد هو: "وأنت يبدو أنك تناسبيننى بصورة رائعة". قال: "أنت تعرفين أين تجدينني". وهزت قطعة الورقة فى الهواء بدلال وجاذبية، كما لو أنها كانت جرسًا صغيرًا، ومما أبهجه أنها دستها عميقاً فى جيب قميصها قبل أن تأخذ طريقها على الممشى مرة ثانية.

لم تتصل أبداً. وحينما كان يقوم بتمشياته لم يرها أبداً ثانية. لابد وأنها قد قررت أن تمارس ركضها على امتداد آخر للممشى، لتقاوم بذلك توقه واشتهاءه للانفجار الأخير لكل شىء.

وبعد فترة قصيرة من الحماقة مع الصبية، "فتاة فارجا" فى شورت الركض والقميص بدون أكمام، قرر أن يبيع شقته ويعود إلى نيويورك. فهو قد اعتبر أن انسحابه من الشاطئ فشل، وهو تقريباً فشل مؤلم، مثلما حدث له كرسام فى نصف السنة الماضية. حتى قبل ١١سبتمبر هو قد اعتزم التقاعد عن نوع الحياة التى كان يعيشها لمدة ثلاث سنوات الآن؛ إذ يبدو أن كارثة ١١ سبتمبر قد أسرعت من فرصته لصنع تغيير كبير، حينما بينت فى الحقيقة بداية ضعفه والأصل وراء نفيه. لكنه الآن سيبيع الشقة ويحاول أن يجد مكاناً فى نيويورك قريباً من "نانسى" فى "الجانب الغربى العلوى". وبسبب أن قيمة الشقق قد تضاعفت

تقريباً فى الوقت القصير الذى تملكها فيه، فربما يكون قادراً على أن يدفع مبلغاً كافياً من المال ليشترى مكاناً فى كولومبيا كبيراً بالقدر الكافى لكليهما لأن يعيشا فيه تحت سقف واحد. سوف يدفع هو مصاريف إدارة المنزل، وتستطيع هى تدبير نفقاتها مع مصروفات رعاية الطفل. فبمقدورها أن تقتصر فى عملها على ثلاثة أيام فى الأسبوع، وتقضى أربعة أيام كاملة مع الأطفال، كما يحلو لها أن تفعل ـ لكنها لا تقدر على تحمل النفقات ـ حيث إنها قد عادت إلى وظيفتها من إجازة رعاية الطفل. "نانسى" والتوءم وهو نفسه. خطة تستحق العرض عليها. وربما لا تهتم هى بمساعدته، وهو يتوق إلى صحبة شخص حميم يستطيع أن يعطيه ويستطيع أن يأخذ منه، ومن أفضل فى هذه الدنيا من "نانسى"؟

سمح لنفسه بأسبوعين ليحكم على إمكانية نجاح الخطة، وليقيس مدى اليأس الذى يشعر به عند تقديمه للاقتراح. وفى النهاية يقرر ألا يقترح على "نانسى" شيئاً فى الوقت الحالى، لكنه يمضى بدلاً من ذلك إلى نيويورك لمدة يوم ليبدأ استكشافه لإمكانية العثور على شقة فى حدود السعر الذى يناسبه وتلائم المعيشة المريحة لهم الأربعة، تتدافع الأنباء السيئة عبر التليفون، أولاً فيما يخص "فايبى"، وفى اليوم التالى عن ثلاثة من زملائه السابقين.

لقد علم بجلطة الدماغ عند "فايبى" حينما دق جرس التليفون بعد السادسة والنصف صباحاً بقليل.

كانت "نانسى" تطلبه من المستشفى. فقد اتصلت بها "فايبى" قبل ساعة لتخبرها أن شيئاً ما يحدث لها، وبعد وقت قصير أخذتها إلى غرفة الطوارئ، كان صوتها محشرجاً، واستطاعت بالكاد أن تفهم أنها قد فقدت الحركة فى ذراعها اليمنى. لقد انتهوا حالاً من عمل صورة الرنين المغناطيسى، والآن "فايبى" تستريح فى غرفتها.

"لكن جلطة، لشخص بشباب وصحة والدتك؟ هل كان لهذا علاقة بالصداع النصفى؟ هل هذا ممكن؟".

قالت "نانسى": "إنهم يعتقدون أن السبب هو الدواء الذى تتعاطاه لعلاج الصداع النصفى، لقد كان أول دواء يجدى معها على الإطلاق. لقد تأكدت أن من آثار الدواء احتمال التعرض قليلاً لخطر الجلطة. كانت تعرف ذلك. لكن بمجرد أن وجدت أنه يصلح، بمجرد ما تخلصت من الألم لأول مرة فى خمسين سنة، قررت أنه يستحق المخاطرة. لقد قضت ثلاث سنوات رائعات خاليات من الألم. عاشت خلالها فى نعيم".

قال حزيناً: "والآن، ومع هذا. هل تريدين أن أحضر؟".

"سوف أخبرك. دعنا نرى كيف تسير الأمور. إنهم يعتقدون أنها قد تعدت مرحلة الأزمة".

"هل ستشفى؟ هل ستستطيع الكلام؟".

"الطبيب يقول هذا، فهو يعتقد أنها ستشفى بنسبة مائة بالمائة".

قال: "رائع"، لكنه فكر، دعنا نرى بماذا يفكر بعد سنة من الآن.

بدون حتى أن يسألها، أخبرته "نانسى": "حينما تترك المستشفى ستأتى لتبقى معى. سوف تكون "ماتيلدا" هناك أثناء النهار وأنا سوف أكون هناك باقى الوقت". كانت "ماتيلدا" مربية من "أنتيجوا" تعتنى بالطفلين بعد أن عادت "نانسى" إلى العمل.

قال: "هذا جيد".

"إنها سوف تشفى تماماً، لكن إعادة التأهيل سوف تستغرق وقتاً".

كان من المفترض أن ينطلق إلى نيويورك فى هذا اليوم على وجه التحديد ليبدأ فى البحث عن شقة لهم جميعاً؛ وبدلاً من ذلك وبعد استشارة "نانسى"، ذهب إلى المدينة لزيارة "فايبى" فى المستشفى، ثم عاد إلى الشاطئ فى ذلك المساء ليستأنف حياته هناك بمفرده. "نانسى" والتوءم وهو نفسه ـ فكرة سخيفة ما كان ينبغى أن يشرع فيها، وكذلك غير عادلة، فهو بذلك قد أخل بالعهد الذى قطعه على نفسه بعد أن انتقل إلى الشاطئ، وهو أن يعزل ابنته مرهفة الأحاسيس عن مخاوفه ويبعدها عن أوجه ضعفه كرجل أدركته الشيخوخة. والآن وقد كانت "فايبى" مريضة جداً، فإن التغيير الذى قد تخيله لهم كان مستحيلاً على أى وجه من الوجوه، وقرر ألا يفكر أبداً فى مثل هذه الخطة لـ"نانسى" مرة أخرى. لم يكن بمقدوره أن يتركها تراه على ما هو عليه.

في المستشفى، رقدت "فايبى" هناك ذاهلة. فعلاوة على كلامها المبهم الذى سببته الجلطة، لم يكن صوتها مسموعاً إلا بالكاد، إلى جانب صعوبة البلع التى تعانيها. كان عليه أن يجلس مباشرة أمام سرير المستشفى من أجل أن يفهم ما الذى تقوله. لم تقترب أطرافهما من بعضهما البعض لما يزيد عن عقدين من الزمان، منذ أن ذهب إلى باريس هناك مع "ميريت" حينما أُصيبت أمه بالجلطة التى قتلتها.

قالت له وهى تحدق فى ذراعها اليمنى المشلولة إلى جانبها: "الشلل مرعب". فهز رأسه بالموافقة. قالت: "أنت تنظر إليها، تطلب منها أن تتحرك...". وانتظر أن تكمل الجملة بينما الدموع تتدحرج من وجهها. وحينما لم تستطع أكملها لها. قال برقة: "وهى لا تتحرك". فهزت رأسها عندئذ، فتذكر طلاقة لسانها مع تفجر انفعالاتها التى انطلقت فى أعقاب خيانته. وتمنى لو أنها تستطيع أن تصب عليه الآن حممها البركانية. أى شىء، أى شىء، اتهام، احتجاج، قصيدة، حملة إعلانات لصالح الخطوط الجوية الأمريكية، صفحة إعلانات فى "ريدر دايجيست" - أى شىء تستطيع طالما ستستعيد قدرتها على الكلام! كلمات "فايبى" التى تموج بالفرح، "فايبى" الصريحة الواضحة، صارت مكممة! أخبرته بعناء شديد: "إنها كل شىء يمكنك تصوره".

فجمالها، الذى يغرى بالبدء فيه، قد ذبل وتهدل، كانت طويلة كما هى، وبدت تحت ملاءة المستشفى

منكمشة كما لو أنها بدأت بالفعل فى التحلل. كيف استطاع الطبيب أن يخبر "نانسى" بأن جسامة كل ما ألم بأمها لن يتبقى منه آثار دائمة؟ ومال إلى الأمام ليلمس شعرها، شعرها الأبيض الناعم، وهو يغالب نفسه لكيلا يجهش بالبكاء هو نفسه، وتذكر مرة أخرى - الصداع النصفى، ولادة "نانسى"، اليوم الذى أتت فيه "فايبى لامبرت" إلى الوكالة، مفعمة بالحيوية، مخيفة، براءة خادعة، فتاة صاعدة تماماً، على العكس من "سيسيليا"، لا يكدرها التاريخ الساحق لخواء الطفولة، كل شىء يتعلق بها مؤثر وعاقل، مباركة لا تميل إلى الانفجار، لكن ليست بسيطة على الإطلاق: أفضل طريقة مُثلى على صعيد الطبيعية يمكن أن تنتجها جماعة "كويكر بنسلفانيا" البروتستانية وكلية سوارزمور. وتذكر تلاوتها له من الذاكرة بدون تباهى، ومن النصوص المتصدعة للإنجليزية الوسطى [1]، والقصيدة التمهيدية لحكايات كانتربرى[2]، وأيضاً، أسلوبها وتعبيراتها الأثرية التى التقطتها من مخلفات أبيها من العبارات المحنطة، مثل: "المعاناة قدر محتم علينا من أجل أن نفهم هذا" و"لا نوغل فى الأمد السحيق إذا قلنا"، وهى التى من الممكن أنها جعلته يقع

(١) الإنجليزية الوسطى هو الاسم الذى أطلقه علماء اللغة على لهجة ونطق اللغة الإنجليزية فى الفترة سنة ١٠٦٦ حتى منتصف القرن الخامس عشر.

(٢) حكايات كانتربرى هى مجموعة حكايات كتبها جيفرى شوسر فى القرن الرابع عشر، حكايتان منها نثر والباقى شعر عن حجاج كانتربرى.

فى عشقها حتى بدون هذه النظرة الأولى لها وهى تخطو واثقة عاقدة العزم من باب مكتبه المفتوح، امرأة شابة ناضجة، الوحيدة فى المكتب التى لا تضع أحمر شفاه، طويلة وصغيرة الصدر، شعرها الأشقر مسحوب للخلف ليكشف عن طول رقبتها وشحمتى أذن صغيرتين لطفلة. سألته فى المرة الثانية التى اصطحبها على العشاء: "لماذا تضحك أحياناً على ما أقوله؟ لماذا تضحك حينما أكون جادة تماماً؟". "لأنك تسحريننى كثيراً، وأنت غير مدركة تماماً لسحرك". "يوجد هناك الكثير جداً مما يجب أن أتعلمه"، هكذا قالت له بينما هو يصطحبها إلى بيتها فى التاكسى؛ حينما رد بنعومة بدون أى مسحة من التعجل شعر بها: "سأعلمك"، فكان أن غطت وجهها بيديها. قالت: "إننى أشعر بالخجل. بالخزى". "ومن منا لا يفعل؟"، هكذا أخبرها وهو يعتقد أنها خجلت؛ لأنها ظنت أنه كان يشير ليس إلى موضوع مناقشتهما - كل الفن الذى لم تره - لكن إلى الممارسة الجنسية، كما كان يقصد بالفعل. إنه لم يكن يفكر فى التاكسى فى أن يريها أعمال "رامبرانت"(*) فى "متحف المتروبوليتان"، لكن يعلمها ما تفعله بأصابعها الطويلة وفمها الواسع، على الرغم من أنه سرعان ما أخذها ليس فقط إلى المتروبوليتان لكن إلى "المتحف الحديث" و"متحف فريك" و"متحف جوجنهايم". وتذكرها وهى تخلع المايوه بعيداً عن الأنظار على الكثبان الرملية.

(*) رامبرانت: رسام هولندى من القرن السابع عشر.

وتذكرها وهى معه فيما بعد الظهيرة يسبحان معاً عبر الخليج. تذكر كيف أن كل شىء يتعلق بهذه المرأة المخلصة الصادقة كان مثيراً بشكل غير متوقع. لقد تذكر مدى نبل استقامتها بدون مراوغة. واسترجع نفسه وهو يخبرها: "لا أستطيع أن أعيش بدونك"، و"فايبى" ترد عليه: "لم يقل لى أحد ذلك أبداً من قبل"، واعترافه: "أنا نفسى لم أقله من قبل".

فى صيف ١٩٦٧ كانت فى السادسة والعشرين.

ثم فى اليوم التالى أتت الأخبار عن الزملاء القدامى، الرجال أنفسهم الذين عمل معهم، وغالباً ما تناول معهم الغداء حينما كانوا جميعاً يعملون مع الوكالة. كان أحدهم المشرف البارع، "براد كار"، دخل إلى المستشفى بسبب اكتئاب عميق؛ والثانى هو "عزرا بولوك" مصاب بسرطان فى آخر مراحله وهو فى السبعين؛ والثالث وهو رئيسه، المهذب الودود وأهم الشخصيات التى مرت على معظم أقسام الحسابات المالية، والذى كان يرعى كل المقربين منه، وعانى لسنوات من متاعب فى القلب والآثار المترتبة على جلطة فى المخ، حيث صُدِم لما رأى صورته فى قسم النعى فى "التايمز": "كلارينس سبراكو، معاون إيزينهاور زمن الحرب ومصمم الإعلانات، مات عن عمر ٨٤ سنة".

اتصل على الفور بزوجة "كلارينيس" فى منزل تقاعدهما فى بيركشايرز.

قال: "مرحباً جوين".

"أهلاً ياعزيزى، كيف حالك؟".

"أنا بخير، كيف حالك؟".

"حالى على ما يرام. أولادى أتوا. لدى الكثير من الصحبة. هناك أشياء كثيرة أستطيع أن أخبرها لك، بمعنى أننى كنت مستعدة لتقبل هذا وبطريقة لم أكن عليها من قبل. حينما رجعت إلى البيت وجدته ميتاً على الأرض، وكانت الصدمة المرعبة. كان قد مات منذ ساعتين حينئذ. يبدو أنه قد مات وقت تناول الغداء، لقد كنت أتناول الغداء بالخارج وهكذا. أنت تعرف، بالنسبة له كانت هذه نهاية طيبة. كانت مفاجئة، ولم يصب بجلطة أخرى ترهقه وتدخله المستشفى".

سألها: "هل كانت جلطة أو سكتة قلبية؟".

"احتشاء عضلة القلب".

"هل كان يشعر بالمرض؟".

"بلى، كان ضغط الدم - حسناً، كانت لديه الكثير من المتاعب فيما يخص ضغط الدم. ثم فى نهاية الأسبوع الماضى لم يكن يعانى منه الكثير جداً. ثم ارتفع ضغط دمه مرة أخرى".

"ألم يقدروا على التحكم فى هذا بالأدوية؟".

"لقد فعلوا. أخذ كل أنواع الأدوية. لكن على الأرجح كان لديه تلف بالشريان. أنت تعرف، الشرايين العجوزة السيئة، فهناك نقطة يبلى عندها الجسد.

وقد كان بالياً جداً عند هذه النقطة. قال لى قبل ليلتين مباشرة، أنا مرهق إرهاقاً شديداً. لقد أراد أن يعيش، لكن ليس هناك شىء يستطيع أى جسد أن يفعله لكى يحافظ على حياته وقتاً أطول. السن الكبيرة معركة يا عزيزى، إن لم يكن مع هذا، إذاً مع ذاك. إنه معركة لا هوادة فيها، وتخوضها فقط حينما تكون فى أضعف قوة وأدنى قدرة على استعادة قوتك القديمة فى القتال".

قال: "تضمن النعى اليوم ثناءً لطيفاً جداً. لقد اعترفوا بأنه كان شخصاً متميزاً. تمنيت أن تكون لدىَّ الفرصة لأخبرهم قليلاً عن الأشياء التى تتعلق بقدرته الرائعة على أن يتعرف على قيمة الناس الذين عملوا معه. لقد رأيت صورته اليوم". ومضى يقول: "تذكرت يوماً منذ سنوات مضت حينما أخذنى أحد العملاء لتناول الغداء فى الفور سيزون، وكنا نهبط درجات السلم إلى الردهة والتقينا هناك مع كلارينس. وكان عميلى يشعر بالزهو، وقال: "كلارينس كيف حالك؟ هل تعرف هذا المخرج الفنى الشاب؟ فقال كلارينس: أعرفه. وأشكر الله أننى كذلك. شكراً لله أن الوكالة تفعل. لقد فعل هذا مرة تلو أخرى، وليس فقط معى".

قالت: "كان يُكِن لك أعلى تقدير ياعزيزى. كان يقصد كل كلمة من هذا. أنا أتذكر، كيف انتشلك من بين المجموعة، لقد اصطفاك من بينهم حينما لم تكن حتى أكملت السنة فى الوكالة. لقد رجع إلى البيت وحكى لى عنك. فـ"كلارينس" كانت له نظرة للموهبة

الإبداعية، ومن ثم فقد التقطك من بين المجموعة كلها ليجعل منك مصمم إعلانات حتى قبل أن تكمل الفترة الإلزامية للعمل فى قسم النشرات".

"لقد كان خَيِّراً معى. كنت دائماً أراه كجنرال".

"هو عمل فقط كولونيلاً تحت قيادة أيزينهاور"

"كان بالنسبة لى جنرالاً. بمقدورى أن أخبرك بعشرات الأشياء التى أتذكرها الآن". لم يكن اقتراح "كلارينس" له بأن يضاجع سكرتيرته فى منزلها بدلاً من مكتبه من بين هذه الأشياء.

قالت "جوين": "من فضلك اذكرها، فحينما تتحدث عنه فكأنما هو مازال هنا".

"حسناً، كان هناك وقت حينما كنا نعمل ونعمل كل ليلة لمدة أسبوعين أو ثلاثة لما بعد منتصف الليل، أحياناً إلى الثانية أو الثالثة صباحاً، فى إعلان لشركة مرسيدس بنز. وكان بالفعل أحد الإعلانات الضخمة، وكنا نعمل من نار، ولم نحصل عليه. لكن حينما انتهى الأمر، قال كلارينس لى، أريدك أن تذهب أنت وزوجتك إلى لندن فى إجازة إسبوعية طويلة. أريدك أن تنزل فى فندق سافوى إنه الفندق الأثير عندى، وأريدك أنت وفايبى أن تتناولا العشاء فى كونوت (*). وعلى حسابى. كان هذا يُعتبر فى تلك الأيام منحة هائلة، وقد أعطاها لي على الرغم من أننا خسرنا

(*) كونوت: فندق خمسة نجوم فى لندن.

صفقة الإعلان. تمنيت لو استطعت أن أطلع الصحف على هذه الحكاية وكل الحكايات الشبيهة".

قالت: "جوين": "كانت الصحف رائعة، حتى هنا. فهناك مقالة عنه اليوم فى بيركشاير إيجيل(*) مقالة طويلة مع صورة رائعة وثناء مطول. ذكروا الكثير مما صنعه فى الحرب، وكيف أنه كان أصغر كولونيل فى الجيش بأكمله. أظن أن كلارينس كان سيسعد ويرضى بالعرفان الذى حظى به".

"انظرى، إنك تبدين فى هذه اللحظة على ما يرام".

"حسناً، بالطبع إننى فى حالة جيدة الآن - فأنا مشغولة وأحظى بالكثير من الصحبة. سيأتى الجزء القاسى حينما أكون بمفردى".

"ما الذى ستفعلينه؟ هل ستبقين فى ماساشوستس؟".

"نعم، حتى الآن. لقد ناقشت هذا مع كلارينس. قلت إذا قدر لى أن أكون أنا التى سأبقى، فسوف أبيع المنزل وأعود إلى نيويورك. لكن الأولاد لا يريدوننى أن أفعل هذا، لأنهم يظنون أنه ينبغى أن أعطى نفسى سنة".

"ربما كانوا على حق. فالناس يندمون أحياناً على الأفعال التى يتخذونها على الفور".

قالت: "أعتقد ذلك، وكيف هو حال نانسى؟".

"إنها بخير".

(*) بير كشاير إيجيل: الجريدة اليومية لمقاطعة بير كشاير.

"حينما أتذكر نانسى كطفلة، لا أملك إلا أن ابتسم. كانت هى الحياة الصافية. أتذكركما أنتما الاثنين تغنيان معاً أغنية "ابتسم" فى منزلنا. كنا نعيش فى خليج تيرتل. وفى ما بعد ظهيرة أحد الأيام منذ زمن طويل. ربما تكون قد علمتها لها. لابد وأنها كانت فى السادسة من عمرها. ابتسم ولو كان قلبك يتألم. كيف يمكن هذا؟. ابتسم ولو كان قلبك يتحطم. أنت اشتريت لها تسجيلاً لنات كينج كول(*). هل تتذكر؟ إننى أتذكر".

"أنا أتذكر أيضاً".

"هل تتذكر هى؟ هل تتذكر نانسى؟".

"أنا متأكد أنها تتذكر. جوين، قلبى وعقلى معك".

"شكراً ياعزيزى. اتصل بى الكثيرون. التليفون لم ينقطع طوال يومين. بكى الكثيرون، أخبرنى الكثيرون ما الذى كان يعنيه بالنسبة لهم. ليت كلارينس يستطيع أن يرى كل هذا. هو قد عرف قيمته للشركة، لكن أتعرف إنه كان يحتاج أيضاً إلى التأكيد نفسه الذى يحتاجه كل شخص فى هذا العالم".

قال: "حسناً، لقد كان مهماً إلى أقصى حد لكل منا. انظرى سوف نتحدث أكثر".

"وهو كذلك يا عزيزى، أنا ممتنة لك كثيراً على اتصالك".

(*) نات كينج كول: موسيقار أمريكى أسود وعازف لموسيقى الجاز فى الستينيات من القرن العشرين.

لقد استغرق منه الأمر فترة حتى يستعيد على التليفون صوتاً كان يثق به. أخبرته زوجة "براد كار" أنها مستشفى مانهاتن حيث كان "براد" ينزل كمريض نفسى. استطاع أن يطلب غرفة "براد" مباشرة، متذكراً كما تذكر هو الزمن الذى أنجزا فيه إعلاناً تجارياً عن قهوة "مكسويل هاوس" فى مسلسل "شرائح من الحياة"(*)، حينما كانا صغيرين فى العشرينات من عمرهما، مبتدئين فقط معاً، يشكلان فريقاً من كاتب ومخرج فنى، ليندفعا إلى البنك فى اليوم التالى لإعلان النقاط. لقد حصلا على ٣٤ أعلى تسجيل فى تاريخ "ماكسويل هاوس". كان اليوم الذى يحتفل به فريق المجموعة بعيد الكريسماس، و"براد" الذى يعرف أن "كلارينس" سوف يأتى حيث صنع صديقه الحميم بطاقات كرتونية ملونة تقول "٣٤" ارتداها كل فرد، وتوقف "كلارينس" فقط ليهنئ "براد" وحتى هو كان يضع إحدى البطاقات ومشيا فى طريقهما.

"آلو، براد؟ صديقك القديم يحادثك من شاطئ جيرسى".

"مرحباً، آلو مرحباً بك".

"ماذا بك يا فتى؟ طلبت بيتك منذ بضع دقائق مضت. لدى مجرد رغبة للتحدث معك بعد كل هذا الوقت، وأخبرتنى "مارى" أنك فى المستشفى. هذه هى

(*) شرائح من الحياة: نوع من القصص التى تصور تتابع الأحداث فى حياة شخصية معينة عادية ولا يشترط أن تتضمن حبكة أو تطويرًا للشخصيات أو صراعًا أو عقدة.

الكيفية التى استطعت بها أن أتوصل إليك. كيف حالك؟".

"حسناً، أنا بخير ومثل هذه الأمور تمضى".

"كيف تشعر؟".

"حسناً، هناك أماكن أفضل للتواجد فيها".

"هل هى مكان كريه؟".

"يمكن أن يكون أسوأ. أقصد أنه تصادف أنه جيد تماماً. إنه لا بأس به. أنا لا أنصح به لقضاء العطلة، لكنه لا بأس به".

"منذ متى وأنت هناك؟".

"أوه، حوالى أسبوع". كانت "مارى كار" قد أخبرته قبل قليل أنه هناك منذ شهر على هذه الحالة، وكانت تلك هى إقامته الثانية فى عام، وأن الأمور لم تكن جيدة جداً فيما بين الإقامتين. كان كلام براد بطيئاً جداً ومتقطعاً - ربما بسبب الأدوية - ومثقلاً باليأس. قال: "أتوقع الخروج قريباً".

"ما الذى تفعله طوال اليوم؟".

"أوه، أنت تتطلع إلى الصور وعناوين الصحف. أشياء مثل هذا. أتجول هنا وهناك فى الردهات. أحاول أن أحافظ على اتزانى".

"وماذا أيضاً؟".

"آخذ العلاج. أتناول الأدوية. أشعر كأننى مستودع لكل دواء يمكن أن يخطر على بالك".

"بالإضافة إلى مضادات الاكتئاب، هل هناك مواد أخرى؟".

"نعم، أغلبها مطمئنات. إنها ليست العقارات المهدئة للأعصاب، إنها مضادات الاكتئاب. أظن أن لها مفعولاً".

"هل أنت قادر على النوم؟".

"أوه نعم. فى البداية كانت هناك مشكلة صغيرة، لكنهم الآن قد تخلصوا من هذه الجزئية".

"هل تتحدث إلى طبيب أثناء النهار؟".

"نعم". هكذا قال "براد" وهو يضحك، وللمرة الأولى بدا أنه يشبه نفسه نوعاً ما. "إنه لا يفيد فى شىء. هو لطيف. إنه يخبرك بأنك إذا حافظت على معنوياتك عالية فكل شىء سيكون على ما يرام".

"برادفورد، هل تذكر حينما كنت غاضباً من كلارينس حول شىء ما، وأعطيته إشعاراً بأسبوعين؟ قلت لك لا تغادر. وقلت أنت، لكن أنا استقلت، فقلت لك، اسحب استقالتك. وبالفعل سحبتها. فمن غير كلارينس وأية وكالة أخرى سوف تتحمل حماقات من كاتب إعلانات؟ لقد فعلتها مرتين على ما أتذكر. وبقيت عشر سنوات أخرى".

لقد دفع "براد" للضحك ثانية. قال "براد": "نعم، لقد كنت دائماً أحمق".

"لقد عملنا مع بعضنا البعض سنين كثيرة. ساعات صامتة لا نهاية لها معاً، مئات ومئات، ربما آلاف وآلاف من الساعات الصامتة معاً فى مكتبك أو مكتبى نحاول أن نصور الأشياء ونخرجها".

قال "براد": "كان هذا شىء ما".

"أنت راهنت على أنه كان. أنت كنت شيئاً ما. ولا تنس ذلك".

"شكراً، صديقى".

وسأل "براد": "ومتى يحين وقت المغادرة؟ متى تظن أن هذا سوف يحدث؟".

"حسناً، أنا لا أعرف فى الحقيقة. أتخيل أنها مسألة أسبوعين. فمنذ أن أتيت هنا وأنا أقل اكتئاباً بكثير عما كنت بالخارج. أشعر غالباً بالهدوء. أعتقد أننى بسبيلى إلى الشفاء".

"هذه أخبار طيبة. سوف أتصل بك ثانية. أتمنى أن أتحدث إليك فى ظروف أفضل سريعاً جداً".

قال "براد": "وهو كذلك، شكراً على اتصالك، شكراً جزيلاً. أنا سعيد باتصالك سعادة غامرة".

وبعد انتهاء المكالمة، تساءل: هل عرف أنه كنت أنا من يكلمه؟ هل هو فى الحقيقة تذكر ما تذكرته؟ من الصوت وحده، لا أستطيع أن أتخيل أنه سيخرج من هناك أبداً.

ثم المكالمة الثالثة. لم يستطع أن يوقف نفسه عن إجرائها، على الرغم من علمه بدخول "براد" إلى المستشفى وموت "كلارينس" ورؤية الضرر الذى سببته جلطة "فايبى"، قد أعطاه ما يكفى لأن يتأمل لفترة. وكما فعل تذكير "جوين" له بتعليمه "نانسى" أن تغنى "ابتسم" مثل "نات كينج كول". كانت هذه المكالمة إلى "عزرا بولوك" الذى لم يكن من المتوقع له أن يعيش إلى ما بعد الشهر، لكنه هو الذى بدا حينما رد على التليفون مندهشاً، مثل شخص ما سعيداً ومتحققاً وليس أقل غروراً عن المعتاد.

قال: "عز، ما الذى يجرى تدبيره؟ تبدو مبتهجاً".

"إننى أنبرى للمناقشة، لأن المناقشة هى تسليتى الوحيدة".

"وأنت لست مكتئباً؟".

قال "عزرا" ضاحكاً: "لا على الإطلاق. أنا ليس لدى وقت لأكتئب. فأنا أرى من خلال كل شىء الآن".

"بما فى ذلك نفسك؟".

"نعم، صدق أو لا تصدق. نزعت عن نفسى كل الهراء، لأصل إلى النقاط الرئيسية أخيراً. لقد بدأت مذكراتى عن أعمال الإعلانات. قبل أن تمضى يتعين عليك أن تواجه الحقائق، "الآس"(*). إذا عشت، سوف أكتب بعض المواد الجيدة".

(*) Ace: الورقة الأولى فى لعبة ورق الكوتشينة.

"حسنا، لا تنس أن تضمنها كيف كنت تمشى إلى مكتبى وتقول، وهو كذلك، ها هى آخر مهلة لك - أول شىء غداً أنا أريد لوحة تنظيم المشاهد بين يدى".

"لقد نجحت فى هذا، أليس كذلك؟".

"لقد كنت مجتهداً يا عز. لقد سألتك ذات مرة لماذا كانت تلك المادة المطهرة اللعينة رقيقة جداً على الأيادى الناعمة للسيدات. فأعطيتنى عشرين صفحة عن نبات الصبار. فحصلت على الجائزة الفنية للإعلان عن هذه الحملة، وكان السبب هو تلك الصفحات. أنت من كان ينبغى أن يفوز بها. حينما تشفى سوف نتناول الغذاء وسوف أحضر لك التمثال".

قال "عز": "هذا اتفاق".

"وكيف هو الألم؟ هل يوجد ألم؟".

"نعم يوجد، أشعر به. لكننى قد تعلمت كيف أتعامل معه. فأنا لدىَّ أدوية خاصة ولدىَّ خمسة أطباء. خمسة. أخصائى أورام وأخصائى مسالك بولية وطبيب باطنى وأخصائى الإعداد النفسى(*) ومنوم مغناطيسى ليساعدنى على تلافى الغثيان".

"الغثيان من ماذا، من العلاج؟".

"نعم، والسرطان أيضاً يصيبك بالغثيان. إننى أتقيأ بسخاء".

"هل هذا هو أسوأ ما فى الأمر؟".

(*) Hospice: الرعاية النفسية لتقبل الموت فى المراحل النهائية بسلام.

"أحياناً أشعر بالبروستاتا كما لو أننى أحاول أن أتبرزها".

"أليس من الممكن أن يستأصلوها؟".

"لن يجدى هذا فى شىء. الوقت متأخر جداً على هذا. وهى عملية كبيرة. ووزنى منخفض. والدم متدن. سوف تضعفنى للغاية وستضطرنى إلى التخلى عن العلاج أيضاً. إنها كذبة كبرى أنها تتحرك ببطء"، وهكذا واصل "عزرا": "إنها تتحرك بسرعة البرق. لم يكن لدى شىء فى البروستاتا فى منتصف يونية، لكن مع منتصف أغسطس انتشر سريعاً جداً بصورة يصعب معها استئصالها. إنها بالفعل تتحرك. لذا انظر على البروستاتا لديك يا ولدى".

"أنا آسف على سماع كل هذا. لكنى سعيد أن أسمع أنك تبدو كما أنت. فأنت هو نفسك، فقط مزيد منها".

قال "عز": كل ما أريده هو أن أكتب هذه المذكرات، سوف أخبر الناس من أكون. إذا استطعت أن أكتب هذا سوف أموت والابتسامة على وجهى. ماذا عنك أنت، هل تعمل بسعادة؟ هل ترسم؟ كنت تقول دائماً إنك ستفعل. هل تفعل؟".

فكذب قائلاً: "نعم، أنا أرسم. أفعل هذا كل يوم. إنه جميل".

"حسناً، لن أقدر أبداً على كتابة هذا الكتاب، أنت تعرف. فبمجرد أن تقاعدت كانت لدىَّ العقبات على

الفور. لكن بمجرد إصابتى بالسرطان، تهاوت تلك العقبات. أستطيع أن أفعل ما أريده الآن".

"هذا علاج وحشى لعقبات الكاتب".

قال "عز": "نعم، أظنه كذلك. أنا لا أنصح به. أنت تعرف، فأنا ربما أفعلها. وحينئذ سوف نتناول هذا الغداء وسوف تعطيننى التمثال. إذا فعلتها سيقول الأطباء إننى أستطيع أن أعيش حياة طبيعية".

فإذا كان لديه بالفعل أخصائى للتمريض النفسى، فيبدو من غير المحتمل أن الأطباء سوف يقولون مثل هذا الشىء. وعلى الرغم من أنهم يتعين عليهم أن يرفعوا معنوياته، أو أنه قد تخيل أنهم فعلوا، أو ربما كانت مجرد غطرسة فى الكلام، غطرسته الرائعة غير المعقولة هذه. فقال: "حسناً، سوف أغرس لك جذورك يا عز، إذا أردت أن تتحدث إلىَّ، ها هو رقمى". وأعطاه له.

قال "عزرا": "جميل".

"أنا هنا طوال الوقت. إذا شعرت أنك فى حالتك، افعلها، اتصل بى. فى أى وقت. هل ستفعل؟".

"عظيم. سوف اتصل".

"وهو كذلك. جميل جداً. مع السلامة".

قال "عزرا": "مع السلامة، مع السلامة مؤقتاً، لا تنس أن تلمع التمثال".

وبعد ساعات من المكالمات الثلاث المتعاقبة ـ وبعد الأمور العادية والتافهة والخطب الحماسية المتوقعة

من أحاديث رفع المعنويات، وبعد محاولة إنعاش روح المرح القديم عن طريق إنعاش ذكريات حياة زملائه من خلال محاولة إيجاد أشياء يقولها لرفع معنويات اليائسين وإرجاعهم من على الحافة - إن ما أراد أن يفعله لم يكن فقط أن يتصل ويتحدث إلى ابنته التى وجدها فى المستشفى مع "فايبى"، بل أن ينعش روح المرح لديه هو بالاتصال والتحدث مع أمه وأبيه. لكن ما تعلمه لا شىء بالقياس مع الانقضاض المحتم وهو نهاية الحياة. لو إنه كان معنياً بالمعاناة الأخلاقية لكل رجل وامرأة حدث وأن عرفهم خلال كل سنوات من حياته المهنية، بالقصة المؤلمة لكل شخص للندم والفقد وكبت الغرائز، للخوف والفزع والعزلة والرعب، لو أنه عرف بكل شىء أخير انفصلوا عنه وهو ما كان فى وقت من الأوقات حيوياً لديهم، لو عرف بالكيفية التى تم تدميرهم بها بصورة نظامية، لربما كان عليه أن يبقى على التليفون طوال النهار إلى الليل يجرى مئات المكالمات الأخرى على الأقل. فالتقدم فى العمر ليس معركة؛ التقدم فى العمر مذبحة.

حينما ذهب بعد ذلك إلى المستشفى للفحص الدورى على الشرايين السباتية، كشف رسم الأمواج فوق الصوتية عن أن الشريان السباتى الثانى كان مسدوداً بشكل خطير ويتطلب الجراحة. ويشكل هذا السنة السابعة فى مرات دخوله إلى المستشفى. أحدثت تلك الأنباء صدمة لديه - وخصوصاً بعد أن عرف خلال التليفون هذا الصباح بوفاة "عزرا بولوك" -

لكن على الأقل سوف يكون لديه جراح الأوعية الدموية نفسه والعملية الجراحية فى المستشفى ذاته، ويعرف فى هذه المرة ما يكفى من أنه لا يتحمل التخدير الموضعى ويطلب بدلاً منه أن يغيب عن الوعى خلال العملية. لقد حاول بكل قوته أن يقنع نفسه من واقع تجربة جراحة الشريان السباتى الأولى أنه لا يوجد ما يقلقه، فلم يهتم بأن يخبر "نانسى" بالعملية المنتظرة، وخصوصاً أنها مازالت مشغولة بالعناية بأمها. إلا أنه صمم على بذل كل جهده لأن يجد "ماورين مرازيك"، على الرغم من أنه خلال ساعات فقط استنفد كل السبل التى يمكن أن تدله على مكان تواجدها.

لم يتبق سوى "هواى" الذى لم يكن قد طلبه فى التليفون منذ وقت مضى. وكما لو كان أنه بمجرد موت والديهما منذ زمن طويل، تحررت كل أنواع الدوافع للتباعد فى السابق أو التى حرص على مداراتها ووجدت لها متنفساً من خلال غضب الرجل المريض. رجل مريض ويائس وكئيب غير قادر على أن يتجنب الفخ المميت لمرضه الطويل والمشوه لشخصيته. ومزق الرابطة الأخيرة لأعز الناس الذين عرفهم. لقد كانت علاقة الحب الأولى له مع أخيه. تلك العلاقة الوثيقة خلال حياته كانت موضع إعجابه بهذا الرجل الرائع جداً. لقد اتسمت كل زيجاته بالفوضى، لكنه كان هو وأخوه خلال حياتيهما كبالغين على علاقة صادقة ثابتة. فلم يكن "هواى" ليسأل عن أى شىء. والآن هو

قد فقده، بالطريقة نفسها التى فقد بها "فاييى" - بأن يفعل هو ذلك فى نفسه. وكما لو أنه لم يعد بالفعل حاضراً إلا أقل القليل من الناس الذين يعنون أى شىء بالنسبة له، فقد أكمل تفكيك العائلة الأصلية. إن تفكيك العائلات كان تخصصه. ألم يسرق من الأطفال الثلاثة مفهوم طفولتهم وحرمهم من حماية الحب المستمر للأب، كما تمتع هو نفسه بأبيه الذى كان مملوكاً كلية له ولـ"هواى"، أب امتلكاه ولم يمتلكه أحد غيرهما؟

وعند التحقق من كل ما دمره من جانبه وبمفرده وبدون مبرر معقول، وما كان أسوأ، من أنه ضد نيته الفعلية، ضد إرادته - من قسوته تجاه أخ لم يكن أبداً قاسياً معه، ولم يقصر فى تهدئة مخاوفه، ولم يتخلف أبداً عن مساعدته، ومن تأثير تركه منزله الذى كان على أطفاله - عند التحقق المهين من أنه لم يتقلص فقط جسدياً إلى شخص ما لم يرد أن يكونه، بدأ يضرب صدره بقبضته، يضرب بإيقاع يتسق مع لوم ذاته، على بعد مجرد بوصات من منظم ضربات القلب المزروع فى صدره. وعند هذه اللحظة، عرف أفضل كثيراً مما استطاع "راندى" أو "لونى" أن يعرفا أين كان يكمن عجزه. فهذا الرجل العادى المتوازن يضرب بغضب على قلبه مثل بعض المتعصبين عند الصلاة، ويهاجمه الندم بعنف، ليس فقط على هذه الغلطة بل على كل غلطاته، كل أخطائه التى لا يمكن استئصالها، كل أخطائه الغبية التى لا مفر منها - قد اكتسحته

تعاسة محدوديته، إلا أنها تعمل كما لو أن كل الحالات الطارئة غير المفهومة فى الحياة كانت من صنعه. قال بصوت عالٍ: "بدون حتى هواى! أنتهى بهذا الشكل، بدونه حتى هو!".

كان يوجد فى مزرعة "هواى" فى سانتا بربارا بيت ريفى مريح للضيافة، متسع تقريباً مثل شقته. ومنذ سنين مضت، أقام هناك هو و"فاييى" و"نانسى" لمدة أسبوعين فى إحدى الصيفيات بينما كان "هواى" وعائلته فى عطلة فى أوروبا. كان حمام السباحة خارج الباب مباشرة، وكانت خيول "هواى" بعيداً على التلال، يعد السياس الطعام لها ويرعونها. وقد عرف أخيراً أن أحد أبناء "هواى" - "ستيف"، أخصائى العلوم البحرية - كان يعيش مؤقتاً هناك مع صديقة له. فهل يجرؤ أن يطلب؟ هل يستطيع أن يأتى مباشرة ويخبر أخاه أنه يود لو يقيم فى منزل الضيوف لمدة شهرين حتى يستطيع أن يقرر أين وكيف سيعيش بعد ذلك؟ لو كان يستطيع أن يطير إلى كاليفورنيا بعد الجراحة ويستمتع بصحبة أخيه فى بداية فترة النقاهة.

التقط التليفون، وطلب رقم "هواى". فجاء الرد من "الأنسر ماشين"، وترك اسمه ورقمه. وبعد ساعة، طلبه الابن الأصغر لـ"هواى"، "روب". قال "روب": "عائلتى فى التبت". "فى التبت؟ ما الذى يفعلونه فى التبت؟" لقد اعتقد أنهم كانوا فى "سانتا باربارا"، وأن "هواى" لم يرغب فقط فى أن يتلقى مكالمته. "أبى ذهب إلى عمل فى هونج كونج، أعتقد إلى اجتماع

مجلس إدارة وذهبت أمى معه. وبعد ذلك سيذهبان ليشاهدا التبت". فسأل ابن أخيه: "وهل مسموح للغربيين أن يذهبوا إلى التبت؟". قال "روب": "أوه، بالتأكيد، سوف يذهبون لثلاثة أسابيع أخرى. هل هناك رسالة لإبلاغها؟ أستطيع أن أبعث لهم برسالة إلكترونية. هذا ما أفعله حينما يتصل الناس". قال: "لا، ليست هناك حاجة إلى ذلك، كيف حال إخوتك يا روب؟". "إنهم بخير. وكيف حالك أنت؟". "إننى أتحسن"، هكذا قال وهو يغلق الخط.

حسناً، لقد طلق ثلاث مرات، والغريب أنه فى وقت من الأوقات لم يكن الرجل المزواج مميزاً بقلة الإخلاص بقدر ما كان موصوماً بالإثم والخطايا، وعليه أن يستمر فى تدبير أموره بمفرده. فمنذ الآن وصاعداً عليه أن يتدبر كل شىء بمفرده. وحتى فى العشرينات من عمره حينما فكر فى نفسه كرجل عادى متزن، وفى الخمسينات من عمره كان يحظى بكل الاهتمام من النساء اللواتى يمكن أن يكون قد أرادهن؛ منذ الوقت الذى دخل فيه مدرسة الفن ولم يتوقف هذا الاهتمام. لقد بدا الأمر كما لو أن قدره لا ينطوى على شىء آخر سوى هذا. لكن حدث أمر غير متوقع، غير متوقع ولا يمكن التنبؤ به؛ لقد عاش ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن، ومن ثَمَّ فإن طريقة الحياة المنتجة والفاعلة قد ولت. وهو لا يمتلك إغراء الذكورة كرجل ولا هو قادر على تحقيق متع الذكورة التى حاول ألا يتوق إليها كثيراً جداً. ومن جانبه قد

شعر لفترة أن العنصر المفقود سوف يعود بشكل ما ليجعله شفافاً رقيقاً مرة أخرى يعيد تأكيد أحقيته فى أن يستعيد اللقب الذى قُطع عنه بالخطأ، ويستطيع أن يستأنف ما تركه قبل بضع سنوات فقط. لكن الآن يبدو أنه مثل أى عدد من الكهول فهو مع مرور الوقت يتضاءل ويتضاءل وأنه سوف يرى أيامه التى بلا هدف حتى النهاية على أنها لا تزيد عما هو عليه - أيام بلا هدف وليالٍ غامضة ويحل الضعف مع التدهور الجسدى والحزن النهائى والانتظار إثر الانتظار للاشىء. هكذا تسير الأمور، وفكر فى أن هذا ما لا يمكن أن تعرفه هى.

لقد وصل الرجل الذى سبح فى الخليج مع أم نانسى إلى حيث لم يحلم من قبل أن يكون. لقد جاء وقت القلق من النسيان. لقد كان هو المستقبل السحيق.

وفى صباح أحد أيام السبت، قبل أقل من أسبوع من الموعد المحدد للجراحة - وبعد ليلة من الأحلام المرعبة، استيقظ فى الثالثة صباحاً وهو يجاهد باستماتة من أجل أن يتنفس، وكان لزاماً عليه أن يضىء كل الأنوار فى الشقة ليهدئ من مخاوفه، ولم يقدر على شىء سوى أن يستلقى على ظهره والأنوار مازالت مضيئة - وقرر أنه من الخير له أن يذهب إلى نيويورك ليرى "نانسى" والتوءم ويزور "فايبى" مرة أخرى، وهى الآن فى بيتها مع الممرضة. ومن الطبيعى أن استقلاله المتعمد قد شكل قوته الأساسية؛ والسبب

فى أنه استطاع أن يشرع فى حياة جديدة فى مكان جديد غير عابئ بترك أصدقائه وعائلته خلف ظهره. لكن منذ أن تخلى عن أى أمل فى العيش مع نانسى أو فى البقاء مع "هواى" شعر بنفسه يتحول إلى مخلوق كالطفل يضعف فى كل يوم. هل كان ذلك إيذاناً بالدخول السنوى السابع إلى المستشفى الذى كان يسحق ثقته؟ هل كان هو المنظور الذى تقترب فيه الأفكار الطبية من الهيمنة لاستبعاد كل شىء آخر؟ أم أنه التحقق من أنه مع كل إقامة فى المستشفى منذ الطفولة يتقدم نحو الجراحة الوشيكة التى يتقلص فيها عدد الحضور إلى جانب فراشه ويتضاءل جيشهم الذى بدأ به إلى لا شىء؟ أم أنه كان ببساطة النذير بقدوم العجز؟

ما حلم به هو أنه يتمدد عارياً إلى جوار "ميليسينت كرامر" فى المرسم. كان يمسك جسدها الميت البارد فى الفراش بالطريقة التى أمسك بها "فايبى" فى الوقت الذى كان يشتد عليها الصداع النصفى حتى يأتى الطبيب ليعطيها حقنة مورفين تخمد الألم لكنها تدخلها فى هلوسات مرعبة. وحينما استيقظ فى المساء وأضاء كل الأنوار، شرب بعض الماء وسارع بفتح إحدى النوافذ وأخذ يمشى فى الشقة ليستعيد توازنه، لكن على الرغم من أنه هو نفسه كان يفكر فى شىء واحد فقط: كيف تأتى لها أن تقتل نفسها. هل فعلت فى غمرة اندفاعها إلى ابتلاع الأقراص قبل أن تغير رأيها؟ وبعد أن تناولتها فى

النهاية هل هى صرخت بأنها لا تريد أن تموت، وبأنها فقط لم تستطع تحمل المزيد من الألم الرهيب، وبأن كل ما أرادته هو أن توقف الألم. تصرخ وتبكى بأن كل ما أرادته هو "جيرالد" أن يكون هناك ليساعدها أن تنتظر وتتماسك وليؤكد لها أنها تستطيع أن تتحمله وأنهما يستطيعان معاً؟ هل ماتت وهى تبكى وتتمتم باسمه؟ أم أنها فعلتها بهدوء تام، مقتنعة أخيراً أنها لم تكن ترتكب أى خطأ؟ هل أخذت وقتها فى التأمل وهى ممسكة بقنينة الأقراص فى يديها قبل أن تفرغ محتوياتها فى كفها وتبتلعها ببطء بآخر كوب ماء تتناوله إلى الأبد؟ وتساءل هل هى استسلمت بعد تفكير شجاع فى كل شىء كانت تتركه خلفها، ربما تبتسم وهى تبكى وتتذكر كل المباهج والمسرات، وكل ما استثارها وأمتعها، وامتلأ عقلها بمئات اللحظات العادية التى كانت تعنى القليل فى حينها، لكنها تبدو الآن أن المقصود منها أن تغمر على وجه الخصوص أيامها بالسعادة العادية؟ أو أنها قد فقدت الاهتمام بما كانت تتركه وراءها؟ هل هى لم تبد أية بادرة للخوف، تفكر فقط، فى أنه أخيراً ينتهى الألم، فى النهاية يذهب الألم، والآن علىَّ مجرد أن أنام لأرحل عن هذا الشىء المذهل؟

لكن كيف يختار المرء متطوعاً أن يترك هذا الامتلاء من أجل هذا اللاشىء النهائى؟ كيف يستطيع هو أن يفعل هذا؟ هل يستطيع أن يرقد هناك بهدوء ويقول وداعاً؟ هل لديه قوة "ميليسنت كرامر"

لاستئصال كل شيء؟ لقد كانت من نفس عمره. لماذا لا؟ في قيد مثل قيدها، ما فائدة بضع سنوات زادت أو قلت؟ من يجرؤ على أن يتحداها في ترك الحياة بهذه السرعة؟ أنا يجب، يجب، هو قد فكر، الدعامات الست تخبرني أنه يجب في يوم ما قريب أن أقول بشجاعة وداعاً. لكن أن أترك "نانسي" - لا أستطيع أن أفعلها! ما يمكن أن يحدث لها في الطريق إلى المدرسة! ابنته تُترك بدون حماية منه سوى رابطتهما البيولوجية! فهو سيحرم من أبدية مكالماتها التليفونية الصباحية! لقد رأى نفسه يتسابق في كل اتجاه في الوقت نفسه من خلال نقاط التقاطع الرئيسية وسط مدينة إليزابيث. الأب الفاشل، الأخ الحسود، الزوج المزدوج، الابن الضعيف. ويُغلق في وجهه محل مجوهرات العائلة، ويصرخ منادياً على الأقرباء الذين لم يستطع أن يحصل منهم على شيء رغم قسوة تعقبه لهم. "ماما، بابا، هواي، فايبي، نانسي، راندي، لوني - فقط لو أعرف كيف أفعلها! ألا تستطيعون أن تسمعوني؟ إنني أرحل! لقد انتهى الأمر وأنا أرحل وأترككم ورائي!". وهؤلاء الذين يتلاشون سريعاً بعيداً عنه كما يتلاشى هو بعيداً عنهم، فقط حولوا رءوسهم ليصرخوا بدورهم كذلك بالمعنى الذي لا يحتمله، "متأخر جداً!".

الرحيل - الكلمة الفعلية التي أوصلته إلى انقطاع أنفاسه، الاستيقاظ وهو مملوء بالرعب، وأرجعته حياً من معانقة جثة.

أبداً لن يكون فى نيويورك. السفر شمالاً على الطريق السريع لـ"جيرسى"، تذكر أنه جنوب مطار "نيوآرك" يوجد مخرج للمقبرة المدفون فيها والداه، وحينما يصل إلى هناك يخرج عن الطريق السريع ويسلك الطريق الذى يلتف ليخترق حى الإقامة العتيق، ثم يجتاز المدرسة الابتدائية القديمة الكئيبة الكالحة، حتى ينتهى عند الطريق العام الذى تسلكه الشاحنات والذى يحيط بالفدادين الخمسة أو ما نحوه للمقبرة اليهودية. وعند أقصى نهاية المقبرة، هناك شارع خالٍ حيث كان معلمو قيادة السيارات يأخذون تلاميذهم لتعلم الدوران والرجوع للخلف. أدخل السيارة ببطء من خلال البوابة المفتوحة ذات القضبان المعدنية وأوقف السيارة مقابل مبنى صغير، لابد وأنه كان مخصصاً للصلاة والآن هو متهدم وجدرانه متصدعة ومملوءة بالتجاويف والفتحات من آثار التخريب. إن المعبد اليهودى الذى كان يدير شئون المقبرة قد انحل وتفكك منذ سنوات مضت حينما رحل المصلون أعضاء المحفل إلى أحياء الضواحى فى مقاطعات "يونيون" و"إيسيكس" و"موريس"، وبدت كما لو أنه لا يوجد أحد يعتنى بأى شىء بما يكفى. فالأرض كانت تنهار وتهبط حول الكثير من القبور، وتداعت أحجار القبور على جنباتها، ولم يكن هذا فقط فى المقبرة الأصلية حيث كان والداه مدفونين فى وسط مئات من شواهد القبور المعتمة المربوطة بإحكام مع بعضها البعض، بل فى الأقسام الأحدث حيث

تشير العلامات الجرانيتية إلى تواريخ من النصف الثانى للقرن العشرين. إنه لم يلحظ أياً منها عندما كانوا مجتمعين لدفن أبيه. كل ما شاهده حينئذ هو التابوت محمولاً على السيور التى تدليه إلى القبر المفتوح. وعلى الرغم من بساطته وتواضعه إلا أنه يطوى العالم كله. ثم تأتى قسوة الدفن والفم المحشو بالتراب.

فى الشهر الماضى على وجه التحديد، كان من بين المعزين فى جنازتين فى مقبرتين مختلفتين فى مقاطعة "مونماوث"، كانت كل منهما بالأحرى أقل حزناً من هذه، وأقل خطورة أيضاً. وخلال العقود الحديثة، بعيداً عن المخربين الذين أتلفوا وهدموا النصب والأضرحة حيث كان والداه مدفونين، كان هناك قطاع الطرق الذين نهبوا المقبرة بالمثل. فى ضوء النهار الساطع نهبوا كبار السن الذين كانوا متواجدين عرضاً بمفردهم فى أزواج لقضاء وقت فى زيارة مقابر العائلة. عند دفن أبيه، أبلغه الحاخام أنه إذا كان قريباً منه فربما يكون من الحكمة أن يزور أمه وأباه أثناء فترة الأعياد اليهودية المقدسة، حيث إن قسم البوليس المحلى وافق بناءً على طلب لجنة مجلس إدارة المقبرة على توفير الحماية للقائمين على الشعائر وللملاحظين الذين جاءوا ليتلوا الأناشيد الدينية ويتذكروا أمواتهم. وهو قد أصغى إلى الحاخام وهز رأسه بالموافقة، لكن حتى حينما فعل لم يعتبر نفسه من بين المؤمنين، ناهيك عن مقيمى الشعائر، حيث كان

لديه بغض شديد للأعياد المقدسة، فهو لم يكن قد اختار أبداً أن يأتى إلى المقبرة حينئذ.

كانت الجنازتان للمرأتين المريضتين بالسرطان فى فصله اللتين ماتتا فى غضون أسبوع، الواحدة تلو الأخرى. وكان هناك أناس كثيرون من "ستارفيتش بيتش" فى هاتين الجنازتين. وحينما نظر حوله لم يكن بمقدوره أن يتنبأ بسهولة من بينهم سوف يكون القتيل فى المرة القادمة. فكل شخص يعتقد فى وقت ما أنه من بين الأحياء الآن لن يتبقى منهم أحد على ظهر الأرض فى خلال مائة عام. فالقوة الطاغية سوف تكتسح المكان وتطهره من كل من عليه. لكنه ظل يفكر على مدار عدة أيام. كان مستغرقاً فى تأملاته كرجل مُعلِم.

حضرت فى الجنازتين امرأة عجوز قصيرة وسمينة، كانت تبكى بشدة غير قادرة على أن تتوقف عن البكاء، فبدا أنها أكثر من مجرد صديقة للمتوفية، عوضاً عن أنها يستحيل أن تكون أماً لأى منهما. وفى الجنازة الثانية وقفت تبكى على بعد خطوات قليلة منه، ووقف على بعد خطوات منه رجل غريب ضخم، وهو من افترض أنه زوجها، على الرغم من أنه (أو ربما لأنه) ظل بشكل ملفت منعزلاً ومنفصلاً عنها عاقداً ذراعيه ومطبقاً فكه وذقنه مرفوع إلى أعلى، إلا أنه فاض به ولم يستطع أن يتحمل أبداً المزيد منها. فيبدو أن دموعها تثير لديه الكراهية قبل كل شئ أكثر من التعاطف، لأنه فى وسط الجنازة عندما كان

الحاخام يرتل بالإنجليزية كلمات كتاب الصلاة، تحول الزوج حانقاً نافد الصبر يسأل: "هل تعرف لماذا تبكى بهذا الشكل؟" . "أعتقد أننى أعرف"، هكذا همس مجيباً، وهو يعنى بهذا أنه من أجلها مثلما كان من أجلى منذ أن كنت صبياً. إنه من أجلها كما هو من أجل كل شخص. إنه من أجل أن أكثر شىء مزعج فى الحياة هو الموت. إنه بسبب أن الموت جائر وظالم. لأنه بمجرد أن يتذوق المرء الحياة لا يبدو الموت حتى طبيعياً. لقد فكرت ـ أنا متأكد بشكل سرى ـ أن الحياة تمضى وتمضى. "حسناً، أنت على خطأ"، هكذا قال الرجل بفتور، كما لو كان يقرأ عقله. "إنها هكذا طوال الوقت. هذا هو ما عليه الحال منذ خمسين سنة". وأضاف بعبوس قاسٍ: "هى هكذا لأنها لم تعد بعد فى الثامنة عشرة".

كان والداه يرقدان قريباً من السور المحيط بالمقبرة، ولم يستغرق سوى مدة قصيرة حتى عثر على قبريهما عن طريق السياج الحديدى الذى يفصل الصف الأخير من أعداد المقابر عن الشارع الجانبى الضيق الذى يبدو أنه البديل المؤقت لتوقف الشاحنات للراحة بعد الركض على الطريق السريع. فمنذ سنوات مضت حينما كان هنا، نسى تأثير المشهد الأول للوح القبر عليه. رأى اسميهما محفورين هناك، وكان عاجزاً عن مثل هذا النوع من البكاء والنشيج الذى يستبد بالأطفال ويجعلهم يرتعشون. لقد استخرج ما يكفى من الذاكرة لكل منهما ـ تذكر المستشفى ـ لكنه

حينما حاول أن يستدعى الذكريات الأقدم، فإن الجهد للوصول إلى الوراء بأقصى ما يستطيع فى ماضيهما المشترك تسبب فى موجة ثانية من المشاعر استبدت به.

لقد كانا مجرد عظام، عظام فى صندوق، لكن عظامهما كانت عظامه، وتوقف قريباً من العظام قدر ما استطاع، كما لو أن الاقتراب يمكن أن يربطه بهم ويخفف من وطأة العزلة المتولدة عن فقد مستقبله وتعيد توصيله بكل الذى مضى. ولمدة الساعة والنصف التالية كانت هذه العظام هى التى تركز حولها جل الاهتمام. كانت هى الشىء الأهم على الرغم من عدوانية البيئة المتعفنة للمقبرة المهملة. فبمجرد أن كان مع هذه العظام لم يستطع أن يتركها، لم يستطع التحدث إليها، لم يقدر سوى الإنصات لها حينما تتكلم. بينه وبين هذه العظام كانت صفقة عظيمة مستمرة، أكبر كثيراً مما بينه وهؤلاء الذين مازالوا يكتسون بلحمهم. اللحم يتلاشى لكن العظام تبقى. فالعظام هى العزاء الوحيد للمرء الذى لا يعتقد فيما بعد الحياة، وأن هذه هى الحياة الوحيدة المتاحة له. وكما قد وضعتها "فايبى" الشابة حينما تقابلا لأول مرة، فهى لم تذهب بعيداً عندما قالت إن أعمق بهجة كانت الآن فى المقبرة. هنا فقط يمكن تحقيق السعادة.

إنه لم يشعر كما لو أنه كان يلعب على شىء ما. هو لم يشعر كما لو أنه يحاول أن يصنع شيئاً ما ليصبح حقيقة. فهذا هو ما كان حقيقياً، هذه الكثافة فى الارتباط مع تلك العظام.

ماتت أمه فى الثمانين، وأبوه فى التسعين. بصوت عالٍ أخبرهما: "أنا فى الواحد والسبعين. ابنكما الصبى فى الواحد والسبعين". "حسناً، أنت عشت"، هكذا ردت أمه، وقال أبوه: "انظر إلى الخلف وتصالح مع ما تستطيع أن تتصالح معه، واصنع أفضل ما قد تركته".

لم يستطع أن يذهب. كان الضعف خارج نطاق التحكم. كما يشتهى كل فرد أن يكون حياً. وأن يعيدها كلها مرة ثانية.

كان عائداً من خلال المقبرة إلى سيارته، حينما مر على رجل أسود يحفر قبراً بجاروف. كان الرجل يقف على عمق قدمين فى قبر لم يكتمل وتوقف عن الحفر ورمى التراب على الجانب حينما اقترب الزائر منه. كان يرتدى رداءً من قطعة واحدة يغطى جسمه بأكمله ويضع على رأسه طاقية "بيسبول" قديمة، وبدا من شاربه الرمادى ومن الخطوط التى ارتسمت على وجهه أنه فى أواخر الخمسينات. لكن بنيانه مع ذلك ظل متماسكاً وقوياً. قال لحفار القبر: "أعتقد أنهم يفعلون ذلك بآلة".

"الآلات يستخدمونها فى المقابر الكبيرة، حيث يقيمون الكثير من القبور مرات كثيرة يستخدمون الآلات، هذا صحيح". تكلم كأحد أبناء الجنوب، ولكن فى حقيقة الأمر كان قاطعاً ومحدداً جداً مثل معلم مدرسى، متحذلقاً أكثر منه عامل يدوى. واستمر حفار القبر يقول: "لأنها من الممكن أن تجعل القبور الأخرى

تنهار. فالتربة يمكن وضعها ويمكن تفتيتها فوق الصندوق. وتكون لديك أحجار القبر التى تريد أن تتعامل معها. فمن السهل تماماً فى حالتى أن تفعل كل شىء يدوياً وبصورة أكثر إحكاماً ودقة. ويسهل أن تزيح الأتربة بعيداً بدون أن تدمر أى شىء آخر. إننى أستخدم بالفعل جرار "تراكتور" صغيرًا تسهل المناورة به، وأحفر بيدى".

لقد لاحظ الآن "التراكتور" فى الممر العشبى بين القبور. "ما الغرض من التراكتور؟".

"يستخدم فى نقل التراب بعيداً. إننى أقوم بهذا العمل منذ زمن بما يكفى أن أعرف كمية الأتربة التى يتعين نقلها بعيداً والكمية التى يجب تركها. فحمولة أول عشر عربات من التراب أنقلها بعيداً. وما يتبقى عدا ذلك ألقيه على الأجناب. فأضع رقائق الخشب على الأجناب. تستطيع أن تراها ممددة ثلاث رقائق خشبية على الأجناب حتى لا تسقط الأتربة على العشب نفسه. وألقى النصف الأخير من التراب على الأجناب. للتعبئة فيما بعد. ثم أغطى كل شىء بهذا البساط الأخضر. أحاول أن أجعله لطيفاً من أجل العائلة. لذلك فهو يبدو مثل العشب".

"كيف تحفره؟ هل يزعجك لو سألت؟".

قال حفار القبر: "لا"، كان مازال يقف قدمين لأسفل حيث كان يحفر. "معظم الناس لا يهتمون. فعند معظم الناس كلما قلت معرفتهم كان ذلك أفضل".

أكد له: "أنا أريد أن أعرف". وقد فعل. لم يشأ أن يمضى.

"حسناً، لدى خريطة. تُظهِر كل قبر قد بيع أو مُهِد فى المقبرة. ومع الخريطة أنت تستطيع أن تضع الخطة، تشترى، من يعرف متى، خمسون سنة مضت، خمس وسبعون سنة مضت. فبمجرد تحديده آتى هنا بمجس. ها هو. فهذا هو مسمار طوله سبعة أقدام على الأرض. آخذ هذا المجس وأنزل به قدمين أو ثلاثة أقدام، وهكذا أستطيع أن أحدد القبر التالى. طرقة. أنت تضرب عليها وتسمعها. وحينئذ آخذ العصا وأُعَلِم على الأرض حيث يكون موقع القبر الجديد. ثم أخذ إطارًا خشبيًا أضعه على الأرض والذى على أساسه أحفر التربة. أحدد الحافة أولاً وأقطع الطبقة العليا من التربة وفقاً لحجم الإطار. ثم أقيسه لأسفل، وأحدد قطعة من الطبقة العليا مقدارها بوصة مربعة، وأعيدها إلى القبر، بعيداً عن الأنظار. لأننى لا أريد أن أحدث أى نوع من الفوضى حينما تكون الجنازة. فكلما قلت الأتربة، سهل التنظيف. فلا أريد أبداً أن أخلف الفوضى. ثم أُنزِل اللوحة الخشبية على القبر التالى له، حيث أستطيع أن أحمل كتلاً من الطبقة العليا للتربة على الشوكة. وأفردها مثل شبكة، ومن ثَمَّ تبدو بالشكل الذى أخذتها به. ويستغرق ذلك حوالى ساعة. إنها الجزء الصعب فى المهمة. فبمجرد أن أؤديه فإننى أحفر حينئذ. وأحضر التراكتور ملحقًا به عربة المقطورة.

وما أفعله هو أننى أحفر أولاً. وهذا هو ما أفعله الآن. ابنى يقوم بحفر الجزء الصعب. إنه أقوى منى. إنه يحب أن يدخل بعد أن أكون قد انتهيت. وحينما يكون مشغولاً أو غير موجود، فإننى أقوم بالحفر كله بنفسى. لكن حينما يكون هنا أجعله دائماً يحفر الجزء الأصعب. أنا فى الثامنة والخمسين، فأنا لا أحفر مثلما اعتدت أن أفعل. حينما بدأ كنت أستبقيه هنا طوال الوقت، وكنا نتبادل الحفر. كان هذا لطيفاً لأنه شاب وهذا يتيح لى الوقت للتحدث معه، نحن - الاثنين - بمفردنا".

"عن ماذا تتحدث إليه؟".

قال ضاحكاً بقسوة: "ليس عن المقابر، ليس كما أحدثك".

"ماذا إذًا؟".

"الأشياء العادية. الحياة على وجه العموم. على أية حال، أنا أحفر الجزء الأول. وأستخدم جاروفين، الجاروف المربع، حينما يكون الحفر سهلاً وتستطيع أن تغرف المزيد من الأتربة، وبعد ذلك أستعمل فقط مجرد جاروف مسنن مستدير الطرف، مجرد جاروف عادى. وهو ما يُستخدم فى الحفر الأساسى، جاروف معتاد منتظم. ويكون الحفر سهلاً، خصوصاً فى الربيع حينما لا تكون الأرض صلبة بالفعل، حينما تكون الأرض مبتلة، أستعمل الجاروف الكبير، وأملأه عن آخره مرات كثيرة وأرميه على عربة المقطورة. فأنا

أحفر من الأمام إلى الخلف، أحفر شبكة، وكلما تقدمت أستخدم اللوح الفاصل لتربيع الفتحة. فأستخدم هذا مع شوكة مستقيمة - إنهم يسمونها المسحاة أو جاروف الشوكة. وأستخدم هذا لتحديد الحواف أيضاً، للضرب إلى أسفل، وقطع الحواف، والاحتفاظ بها مربعة. فيتعين عليك أن تحتفظ بها مربعة كلما تقدمت. إن أول عشر حمولات تذهب إلى عربة المقطورة، فآخذها إلى الجزء المنخفض من القبر حيث نملأ هذه المنطقة، وأفرغ عربة المقطورة وأرجع لأملأها ثانية. عشر حمولات. وعند هذه النقطة أكون فى منتصف الطريق تقريباً. هذه حوالى ثلاثة أقدام".

"إذًا يستغرق الأمر من البداية إلى النهاية؟"

"يستغرق الأمر حوالى ثلاث ساعات لأصل إلى النهاية. يمكن أن تأخذ حتى أربع ساعات. يتوقف على الحفر. ابنى حفار جيد - تأخذ معه حوالى ساعتين ونصف بعدى. إنه يوم عمل. فأنا فى المعتاد آتى حوالى السادسة صباحاً، ويأتى ابنى فى حوالى العاشرة. لكنه مشغول الآن، وأخبرته أنه يستطيع أن يفعل هذا حينما يريد. وإذا كان الطقس حاراً سوف يأتى فى المساء حينما تخف الحرارة. مع اليهود نحصل على سماح بيوم واحد، فينبغى أن نعمل سريعاً. أما فى المقابر المسيحية" - وأشار إلى أن المقابر الممتدة الرابضة على الطريق - "سوف يعطينا الحانوتية إشعاراً بيومين أو ثلاثة أيام".

"ومنذ متى وأنت تقوم بهذا العمل؟".

"أربعة وثلاثون عاماً. زمن طويل. إنه عمل جيد. إنه سلمى. يعطيك الوقت لتفكر. لكنها كمية ضخمة من العمل. بدأت تؤلم ظهرى. فى يوم ما سرعان ما سأحول الأمر كله إلى ابنى. سيتولى المهمة وأنا عائد إلى حيثما يكون الحول دافئاً على مداره. لأننى، لا تنس، أنا أخبرتك فقط عن حفره. فعليك أن تعود لتملأه. هذا يستغرق منك ثلاث ساعات. أن تعيد الطبقة العليا من التراب، وهكذا. لكن دعنا نعود إلى وقت حفر القبر. لقد انتهى منه ابنى. لقد سواه، إنه منبسط فى القاع. عمقه ستة أقدام، يبدو جيداً، تستطيع أن تقفز إلى أسفل فى الحفرة. مثل الرجل العجوز الذى حفرت له أول مرة، اعتاد أن يقول سوف تكون منبسطة بما يكفى أن تسوى فراشاً بداخلها. واعتدت أن أضحك منه حينما يقول ذلك. لكن الأمر كذلك بالفعل: أنت حصلت على هذه الحفرة، على عمق ستة أقدام، وأصبحت صالحة من أجل العائلة وصالحة من أجل الموت".

"هل تمانع إذا وقفت هنا أشاهد؟".

"لا، على الإطلاق. هذا حفر لطيف. لا صخور. مباشر.".

لاحظه وهو يحفر بالجاروف، ثم يرفع التراب ويرميه بسهولة على رقائق الخشب الأبلكاش. ويستخدم كل بضع دقائق أطراف الشوكة ليسوى الأجناب، ثم يختار أحد الجاروفين ليستأنف الحفر.

وتصطدم كل فترة صخرة صغيرة برقائق الأبلكاش، لكن معظم ما يأتى إلى أعلى من القبر كان عبارة عن تربة بنية اللون مبللة تتكسر بسهولة وتنفصل عن الجاروف.

كان يراقب من جانب شاهد القبر عند المؤخرة التى سواها حفار القبر للرقع المربعة من الطبقة العليا من الأتربة التى سيعيدها إلى قطعة الأرض بعد الجنازة. لقد سويت طبقة الأتربة العليا بدقة مع لوح الخشب الأبلكاش التى تستقر عليها القطع الصغيرة. ومازال لا يريد أن يذهب، لا تمر لحظة إلا ويدير رأسه تقريباً ليلقى نظرة خاطفة على شاهد قبر والداه. لم يرد أبداً أن يذهب.

قال حفار القبر وهو يشير إلى شاهد القبر: "هذا الرجل هنا قاتل فى الحرب العالمية الثانية. أسير حرب فى اليابان. يا له من شخص جميل رائع. عرفته حينما كان معتاداً على أن يأتى ليزور زوجته. فتاة لطيفة. كان دائماً رجلاً مهذباً. يسعى إليك بود، من نوع الرجال الذى يثير اهتمامك".

"إذًا أنت تعرف بعضاً من هؤلاء الناس".

"بالتأكيد. يوجد صبى هناك، فى السابعة عشرة. قُتِل فى حادث تصادم سيارة. يأتى أصدقاؤه ويضعون علب البيرة فوق قبره. أو صنارة صيد سمك. كان يحب صيد السمك".

نظف الأجمات الطينية من على جاروفه بصدمه بشدة على لوح الخشب الأبلكاش، ثم استأنف الحفر.

قال وهو ينظر عبر المقبرة على الشارع: "أوه، ها هى قد جاءت"، وفى الحال ترك الجاروف وخلع قفاز العمل الأصفر السميك. وللمرة الأولى خطا خارج القبر وضرب فردتى حذاء العمل فى بعضهما البعض لينفض الأتربة العالقة بهما.

كانت المرأة السوداء العجوز تقترب من القبر المفتوح، تحمل زمزمية مبرد صغيرة فى إحدى يديها وفى اليد الأخرى "تورموس". كانت ترتدى حذاءً رياضياً وبنطلوناً من قماش النايلون بلون القفاز الذى يعمل به حفار القبر، وسترة زرقاء بسوستة عليها اسم الفريق الأمريكى لنيويورك.

قال لها حفار القبر: "هذا رجل لطيف مهذب كان يزور معى هذا الصباح".

هزت رأسها وناولته المبرد والتورموس اللذين وضعهما إلى جانب الجرار التراكتور.

"شكراً يا عزيزتى. أرنولد مازال نائماً؟".

قالت: "لقد استيقظ، صنعت لك رغيفين لحم وسجق".

"هذا جيد، أشكرك".

وهزت رأسها مرة أخرى ثم استدارت ومضت خارج المقبرة، حيث ركبت سيارتها وابتعدت بها.

استفسر من حفار القبر: "هذه زوجتك؟".

"هذه سيلما"، وأضاف وهو يبتسم: "إنها تطعمنى".

"ليست أمك".

قال حفار القبر وهو يبتسم: "لا، لا، لا - لا يا سيد، ليست سيلما".

"وهى لا تبالى وتأتى إلى هنا؟".

"عليك أن تفعل ما تفعله. هذه هى فلسفتها باختصار. ما يأتى بسيلما هو مجرد حفر الحفرة. هذا شىء لا تتفرد به".

"أنت تريد أن تأكل غداءك، لذا سوف أنصرف وأتركك. لكن أريد أن أسأل - إننى أتساءل ما إذا كنت أنت الذى حفرت قبرىّ أبى وأمى. إنهما مدفونان هنا. دعنى أُريك".

تبعه حفار القبر، حتى استطاعا أن يريا بوضوح موقع لوح ضريح العائلة.

سأله: "هل أنت حفرتهما؟".

قال حفار القبر: "بالتأكيد أنا الذى فعلت".

" حسناً، أريد أن أشكرك. أريد أن أشكرك على كل شىء أخبرتنى به، كم كنت واضحاً معى. فأنت لم تضف صلابة على الأشياء. إنه تعليم جيد لشخص متقدم فى العمر. أنا أشكرك على الصلابة، وأشكرك على أنك كنت حريصاً جداً ومهتماً حينما حفرت قبرىّ والدىَّ. أتساءل ما إذا كان يمكننى أن أعطيك شيئاً".

"أنا تلقيت أجرى فى وقتها، أشكرك".

"نعم، ولكننى أريد أن أعطيك شيئاً من أجلك أنت وابنك. فأبى كان دائماً يقول، من الأفضل أن تعطى ويداك مازالتا دافئتين". وأخرج له ورقتين من فئة الخمسين، وحينما أطبق الكف الكبير الخشن لحفار القبر حول الورقتين، نظر عن قرب على الوجه الودود المجعد والبشرة ذات الحفر للرجل الأسود ذى الشارب الذى ربما يحفر حفرة له تكون منبسطة بما يكفى فى القاع لأن يتخذها فراشاً يرقد عليه.

فى الأيام التى تلت، كان فقط يشتاق إليهما ويستحضرهما، ليس مجرد الأبوين العظميين لكن أبوين من لحم للصبى فى عمر الزهور، فى الطريق إلى المستشفى فى الحافلة مع رواية "جزيرة الكنز" ورواية "كيم" اليتيم فى حقيبة فى حجر أمه تضعها على ركبتيها. صبى مازال غضاً لكنه لا يظهر فى وجودها أى خوف وتتبدد كل أفكاره عن الجسد المنتفخ للبحار الذى شاهد حرس السواحل ينقلونه من على حافة الشاطئ من بقعة البترول المتجمدة.

ذهب مبكراً فى صباح الأربعاء لإجراء الجراحة للشريان السباتى الأيمن. وكان النظام مطابقاً لما حدث فى الجراحة على الشريان السباتى الأيسر. انتظر دوره فى حجرة الانتظار مع الأشخاص الآخرين المدرجين فى جدول الجراحة حتى نودى على اسمه، واصطحبته الممرضة برداء العمليات الردىء والحذاء الورقى إلى غرفة العمليات. وفى هذه المرة حينما سأله أخصائى التخدير الذى يضع القناع إذا كان يريد تخديراً موضعياً أو كلياً، طلب التخدير الكلى

لكى يجعل الجراحة أسهل عليه أن يتحملها مما كان عليه الأمر فى المرة الأولى.

إن الكلمات التى قالتها العظام جعلته يشعر بالفرح وعدم القابلية للفناء. وهكذا فعل الخضوع الذى اكتسبه بصعوبة لأسود أفكاره. فلن يوجد شىء يستطيع أن يخمد حيوية الصبى الذى ركب طوربيده الجسدى الصغير النحيل ذات مرة أمواج الأطلنطى من على بعد مائة ياردة داخل المحيط الوحشى بطول الطريق إلى الشاطئ. أوه، التخلى عنها ورائحة الماء المالح والشمس المحرقة! فكر فى أن ضوء النهار يخترق كل مكان، يوماً بعد يوم من أيام الصيف من خلال ذلك الضوء المتوهج لنهار البحر الحى، كنز بصرى شاسع المدى نفيس يمكن أن يلمع من خلال العدسة المكبرة المدفونة مع الأحرف الأولى لاسم أبيه فى الكوكب نفسه الرائع الذى لا يقدر بثمن - فى بيته، فى القيراط البليون، التريليون، الكوادريليون لكوكب الأرض! لقد غاص إلى شعور بعيد عن السقوط، أى شىء، لكنه ملعون، يتوق حتى الآن مرة أخرى أن يتحقق، إلا أنه لم يستيقظ أبداً. سكتة قلبية. هو لم يعد موجوداً بعد الآن، تحرر من الكينونة، يدخل إلى لا مكان بدون أن يعرفه. تماماً مثلما خاف من البداية.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «إنتر».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ إيتالوكالڤينو. رواية (عدد خاص) جائزة «ڤياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء / للكاتب التركى أورهـان باموق ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط/ للكاتب المصرى إبراهيم عبدالمجيد ـ أدب رحلات - «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة / للكاتب المصرى محمد كامل حسين ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء / للكاتب الجنوب أفريقى ج . م . كوتسى ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب / للكاتبة الجنوب إفريقية مارى واطسون ـ متتالية قصصية / «جائزة كين» .

١٧ ـ شوشا / للكاتب البولندى اسحق باشيفيس سنجر/ رواية / «جائزة نوبل».

١٨ - شارع ميجل/ للكاتب من ترينداد/ ف. س. نايبول. رواية/ «جائزة نوبل».

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ ـ الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ «جائزة بن مالامود».

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ «جائزة الجونكور».

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورچ بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. «جائزة نوبل».

٢٩ ـ إليزابيث كُسّتلُّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. «جائزة چورج بوشنر الكبرى».

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. «جائزة بيريياروبيا».

٣٢– مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. «جائزة البوليتزر».

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. «جائزة نوبل للآداب».

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. «جائزة البوكر».

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. «الجائزة الوطنية للآداب».

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. «جائزة الأورانچ».

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة نادال».

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية چويس كارول أوتس.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة بلانيتا».

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية كيران ديساى.. ر واية.. «جائزة البوكر».

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية انجريد توبوا.. رواية.. «جائزة الرواية الأولى فى فرنسا».

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥٠ ـ يوميات عام سئ.. للكاتب الجنوب إفريقى ج.م كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى أندرو ميللر.. رواية.

٥٢ ـ إنقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى شيركو فتّاح.. رواية.. «جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى».

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الانجليزية دوريس ليسنج.. مسرح.. «جائزة نوبل».

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى شيركو فتّاح.. رواية.. «جائزة نظرات أدبية».

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر.. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى جان مارى جوستاف لوكليزيو.. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الاسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة العم ما.. للكاتب الجابونى چان ديڤاسا نياما.. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة ثرفانتيس.

٦٧ ـ داى.. للكاتبة الاسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٧٠ ـ نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧١ ـ صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧٢ ـ المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ ـ كتاب الخط والرسم.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل فى الآداب.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ـ نريدُ أن نتحدث عن كيڤين.. ليونيل شرايفر.. جائزة الأورانج ٢٠٠٥.

٢ ـ حزن مدرسى.. دانيال بناك .. جائزة روندو ٢٠٠٧.

٣ ـ أناقة القنفذ.. موريبل باربرى.. جائزة المكتبات ٢٠٠٧.

الرواية

يصدمنا بطل رواية "رجل عادى" منذ الصفحات الأولى، فهو "ميت" يشرع فى البحث عن الغفران فى كل رجل "Everyman"، وتومض ابتداءً من اقترابه من مدفنه لحظات حياته كلها أمامه.. الموت التفصيلى لمحطات صخبه المتعاقبة.. وحشية فشل زيجاته.. اعتقاده الدائم باستحالة الحب والإخلاص.. الألم الناتج من الفقد.. زحام الآخرين.. فداحة ظلمه للمقربين منه.. خطاياه التى يحاولُ محوها باعتراف ممتد بضعفه الإنسانى وقلة حيلته.

إن منظار "روث" الذى لايرى الحياة إلاَّ من خلاله كان قاسيًا لدرجة لم ترشح له إلاَّ مشاهد المرض والفناء.

‹ جاء فى قرار تحكيم جائزة فوكنر حول "كل رجل".

"إنها رواية مرهقة تستولى على الأفكار، وتخلب العقل فى بساطتها وعفويتها ورؤيتها الشجاعة للحياة، إن "روث" لايذهب بعيدًا فى كتاباته، ولايتفهم الأشياء، ولايهز كتفيه استهجانًا، بل يقرر الكفاح مع جسامة ألم فقد الذات".

الروائى: الروائى الأمريكى فيليب روث.

الجائزة: جائزة فوكنر للرواية عام ٢٠٠٧





الهيئة المصرية

ISBN# 9789774214102



٨ جنيهات